

مارغريت دوراس

العاشق



ترجمة

صالح الأشمر

منشورات الجمل

رواية

مارغريت دوراس

العاشق

ترجمة

صالح الأشمر

منشورات الجمل

مارغريت دوراس (١٩١٤ ـ ١٩٩٦). روائية وكاتبة مسرحية ومخرجة سينمائية فرنسية اشتهرت بتنوّع أعمالها. وِلِدت في سايغون إبّان الاستعمار الفرنسي لفيتنام وتوفيّت في باريس عن ٨١ عاماً. من أشهر أعمالها: **سدّ ضد المحيط؛ بحّار جبل طارق؛ هيروشيما حبيبي؛ عشيق الصين الشمالية؛** فازت بجائزة غونكور الأدبية عام ١٩٨٤ عن روايتها «**العاشق**» التي بيع منها حوالي ٣ ملايين نسخة وترجمت إلى ٣٠ لغة، وحُوّلت إلى فيلم سينمائي عام ١٩٩٢.

صالح الأشمر: كاتب وصحافي لبناني. ترجم العديد من النصوص والمؤلفات من اللغة الفرنسية إلى العربية، صدر بعضها عن منشورات الجمل: **إغضبوا**؛ لستيفان هسل، **أنساب الآلهة**؛ لهزيودوس، **خوف حارس المرمى عند ضربة الجزاء**؛ لبيتر هاندكه.

مارغريت دوراس، **العاشق**. ترجمة: صالح الأشمر. الطبعة الأولى.

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى برينو نويتن

ذات يوم، في بهوِ مكان عام، وكنت قد تقدّمتُ في السنّ، أقبل نحوي رجل عرَّفني بنفسه وقال لي: «أعرفك منذ زمن بعيد. يقول الجميع إنك كنتِ جميلة وأنتِ شابَّة، وقد أتيتُ لأقول لك إنني أجدك الآنَ أجمل مما كنتِ في شبابك، وليس وجهك وأنت امرأة شابّة بأحبّ إليّ من وجهك الآن، هذا المُكْتَسح».

غالباً ما أفكّر في هذه الصورة التي ما زلتُ أراها وحدي ولم أتكلّم عنها أبداً. إنها لا تزال ماثلةً هنا في الصمت نفسه، إنها مذهلة. وهي التي تعجبني عن ذاتي من بين جميع الصور الأخرى، وهي الوحيدة التي أتعرّف فيها إلى نفسي، والتي تسحرني.

سرعان ما كان الأوان قد فات في حياتي، في الثامنة عشرة من عمري كان قد فات الأوان. وبين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين ذهب وجهي في اتجاه غير متوقَّع. لقد شختُ في الثامنة عشرة. ولست أدري إن كان الجميع قد شاخ. لم أسأل أبداً. وأحسبُ أنني حُدِّثت عن اندفاعة الزمن هذه التي تصيبكم أحياناً وأنتم تعبرون أعمار الحياة الأفتى والتي تحظى باحتفاء

أكبر. هذه الشيخوخة كانت فظّة ومباغتة. رأيتها تكتسح ملامحي واحداً واحداً، وتُغيِّرُ العلاقةَ القائمة في ما بينها، فتجعل العينين أكبر، والنظرة أكثر حزناً، والفم أشد صرامةً، وتَسِمَ الجبين بتجاعيد عميقة. لم ترعبني تلك الشيخوخة بل على العكس رأيتها تجري في وجهي بنفس الاهتمام الذي كان يمكن لي أن أوليه مثلاً لمجرى قراءة ما. وكنت أعلم أيضاً أنني لا أخدع نفسي، وأن هذه الشيخوخة سوف تتباطأ يوماً ما وتأخذ مجراها الطبيعي. وأذكر أن الناس الذين عرفوني عندما كنت في السابعة عشرة، أثناء رحلتي إلى فرنسا، دُهشوا عندما رأوني، بعد سنتين، وأنا في التاسعة عشرة. لقد احتفظت بذلك الوجه، الجدّي. كان وجهي، طبعاً، وقد شاخ أكثر، لكن أقلّ نسبياً مما كان ينبغي له أن يشيخ. لي وجهٌ مُمزّق بأخاديد عميقة، وجلدٍ متكسّر. لم يضعف مثل بعض الوجوه ذات القسمات الدقيقة، واحتفظ بالتقاطيع نفسها غير أن مادّته مدمّرة. لي وجهٌ مُدمَّر.

ماذا أقول لكم أيضاً، عمري خمسة عشرة عاماً ونصف العام.

إنه عبور مُعدِّية على الميكونغ.

الصورة القاسية طوال مُدّة اجتياز النهر.

عمري خمسة عشر عاماً ونصف العام، ولا فصول في ذلك البلد، فنحن في فصل وحيد، حارّ، ورتيب، نحن في المنطقة الطويلة الحارة من الأرض، لا ربيع، ولا تجدُّد.

أنا في مدرسة داخلية رسمية في سايغون. أنام وآكل هناك، في تلك المدرسة الداخلية، لكنني أذهب إلى الصف في الخارج، في المدرسة الثانوية (الليسيه) الفرنسية. أمي، المدرّسة، تريد أن تحصل ابنتها على الشهادة الثانوية. تقول: أنت سوف تحتاجين إلى الثانوية. غير أن ما كان كافياً لها لم يعد كذلك للصغيرة. الثانوية ثم شهادة أستاذية ممتازة في الرياضيات. لطالما سمعت هذه اللازمة منذ سنواتي الأولى في المدرسة. لم أتخيّل يوماً أن بإمكاني الإفلات من شهادة الأستاذية في الرياضيات، غير أنني كنت سعيدة بأن أجعلها تأمل ذلك. فلقد رأيت أمي على الدوام تصنع كل يوم مستقبل أولادها ومستقبلها. وذات يوم لم تعد قادرة على أن تصنع مستقبلات مجيدة لأولادها فاصطنعت لهم مستقبلات أخرى، مستقبلات وفقاً للوسائل المتاحة، ولكن أولادها كانوا هم أيضاً يقومون بدورهم على هذا النحو، فيغلقون الوقت أمامهم. أذكر دروس المحاسبة لأخي الصغير. والمدرسة العامة كل سنة، على جميع المستويات. كانت أمي تقول: يجب اللحاق. كان ذلك يستمر لثلاثة أيام، ولا يستمر لأربعة أيام، أبداً، أبداً. كانت المدرسة العامة تُهمل عندما تغيّر أمي وظيفتها. وتُستأنف في الوظيفة الجديدة. صمدت أمي عشر سنوات. لم يحدث فيها شيء. أصبح الأخ الصغير محاسباً صغيراً في سايغون. ولأن المدرسة

البنفسجية[1] لم تكن موجودة في المستعمرة فإننا ندين لها بسفر أخي الأكبر إلى فرنسا. لقد أقام في فرنسا بضع سنوات لينهي دراسته. لم ينهها. وأمي لم تُخدَع. لكن لم يكن لديها الخيار، فقد كان لا بد من إبعاد هذا الابن عن الابنين الآخرين. وفي غضون عدة سنوات لم يعد عضواً في العائلة. في غيابه اشترت أمي حق استثمار قطعة الأرض. وكان ذلك مغامرة هائلة، لكن بالنسبة إلينا نحن الولدين اللذين بقيا لم تكن أشد هولاً مما لو أمكن حضور قاتل أطفال الليل، ليل الصيّاد.

غالباً ما كان يقال لي إن ذلك عائد إلى الشمس التي كانت قوية جداً في فترة الطفولة كلها. غير أنني لم أصدّق ذلك. وقيل لي أيضاً إنه التفكير الذي كان البؤسُ يُغرق فيه الأطفال. لكن لا، ليس هذا. نعم، بالنسبة إلى الأطفال، العُجّز بسبب المجاعة. لكن نحن لا، لم نكن جوعى، كنا أطفالاً بيضاً، وكنا نستحي، لقد بعنا أثاثنا، لكننا لم نكن جوعى، كان لدينا خادم وكنا نأكل، والحق أننا كنا نأكل أحياناً أطعمة رديئة، طيوراً مائية، وتماسيح صغيرة، غير أن هذه الأطعمة الرديئة كانت

---

(١) l'ecole violet: كلية هندسة خاصة يدرس الطلاب فيها هندسة الكهرباء والآليات الصناعية. تأسست عام ١٩٠١ في باريس وعُرفت باسم مدرسة فوبان Vauban، ثم انتقلت إلى شارع فيوليه Violet في عام ١٩٠٣ وأصبحت تعرف باسم مدرسة فيوليه نسبةً إلى الشارع (المترجم).

مطهوّة على يد خادمٌ كان يقدّمها لنا، وأحياناً كنا نرفضها، كنا نسمح لأنفسنا بهذا الترف، ألاّ نريد أن نأكل. لا، لقد حدث شيء ما عندما كنت في الثامنة عشرة، شيء أوجد هذا الوجه. ولا بد أنه حدث ليلاً. كنت أخاف من نفسي، وكنت أخاف من الله. في النهار كان خوفي أقل، وكان الموت يبدو أقل خطراً. غير أنه لم يفارقني أبداً، كنت أريد أن أقتل، كنت أريد أن أقتل أخي الأكبر، كنت أريد أن أقتله، أن أتغلّب عليه لمرّة، لمرّة واحدة، وأن أراه ميتاً. وذلك لكي أزيل من أمام أمي موضوع حبّها، هذا الابن، ولكي أعاقبها على شدّة حبّها له، حبّاً مؤذياً، وبخاصة لكي أنقذ أخي الصغير، إبني، من الحياة الصاخبة لهذا الأخ الأكبر، هذه الحياة الموضوعة فوق حياته، ومن هذا الحجاب الأسود الذي يحجب النهار، ومن ذلك القانون المتمثّل في شخصه، وهو الذي استنّه، هو الكائن البشري، والذي كان قانوناً بهيمياً، وكان في كل لحظة وفي كل يوم من حياة هذا الأخ الصغير يبعث الخوف في تلك الحياة، الخوف الذي ما إن بلغ قلبه حتى أماته.

لقد كتبت كثيراً عن هؤلاء الناس من عائلتي، لكن حين كنت أكتب عنهم كانوا لا يزالون على قيد الحياة، الأم والأخوان، وكتبت حولهم، وحول هذه الأشياء من دون أن أقترب منها.

قصة حياتي لا وجود لها. هذه قصة غير موجودة.

لم يكن ثمة مركز قطّ. لا درب، ولا خط. ثمة أماكن شاسعة حيث يمكن الاعتقاد بوجود شخص ما، وهذا غير صحيح فلم يكن هناك أحد. لقد سبق لي أن كتبت جزءاً صغيراً إلى حدّ ما عن شبابي، وعلى أي حال أريد أن أقول كيف أتصوّره، وهذا ما أتحدث عنه على وجه الدقة، عن شباب عبور النهر. وما أفعله هنا مختلف، ومماثل.

في الماضي تحدثت عن مراحل واضحة، عن تلك التي كانت مضاءة. هنا أتكلم عن مراحل مخفيّة من ذلك الشباب نفسه، عن بعض الأشياء التي أخفيتها بخصوص بعض الوقائع، وبعض المشاعر، وبعض الحوادث. بدأت الكتابة في وسط يدفعني إلى الحياء دفعاً. كانت الكتابة في نظرهم لا تزال أخلاقية. أما الكتابة الآن فيبدو أنها لم تعد شيئاً يذكر غالباً. في بعض الأحيان أعلم ما يلي: أعلم أن الكتابة، بعد خلط الأشياء بعضها ببعض، ليست لا شيء حين لا تنحو منحى العبث والريح.

وأعلم، بعد خلط الأشياء بعضها ببعض وجعلها شيئاً واحداً من حيث الجوهر غير القابل للوصف، أن الكتابة ليست سوى إشهار، لكن غالباً ما لا يكون لي رأي، وأرى أن جميع الحقول مفتوحة، وأنه لم يعد ثمة جدران، وأن المكتوب لم يعد يعرف أين يضع نفسه لكي يختبىء، ولكي يصنع نفسه، ولكي يقرأ نفسه، وأن وقاحته الأصلية لن تكون محترمة بعد الآن، غير أنني لم أفكّر في ذلك من قبل.

الآن أرى أنني كنت قد اكتسبت، وأنا في أول الشباب، في الثامنة عشرة، في الخامسة عشرة، ذلك الوجه المنذر بالوجه الذي التقطه بعد ذلك مع الخمرة وأنا في أواسط العمر. لقد قامت الخمرة بالمهمّة التي لم يقم بها الله، ولقد أدّت الخمرة أيضاً مهمّة قتلي، مهمّة القتل. وجه الخمرة هذا جاءني قبل الخمرة. جاءت الخمرة لتأكيده.

كان في داخلي مكان لذلك. وكنت أعرفه كما يعرفه الآخرون، لكن الغريب أنني عرفته قبل أوانه. كما كان في داخلي مكان للمتعة. كان لديّ وأنا في الخامسة عشرة وجه المتعة وكنت لا أعرف المتعة. هذا الوجه كان يرى نفسه بقوة. حتى أمي كان ينبغي لها أن تراه. وكان أخواي يريانه. على هذه الشاكلة بدأ كل شيء بالنسبة إليّ، بهذا الوجه الرائي، المنهك، وهاتين العينين المحاطتَين بالزرقة المتقدمتين على الزمن، وعلى التجربة.

خمسة عشر عاماً ونصف العام. إنه عبور النهر. عندما أعود إلى سايغون أكون مسافرة، خصوصاً عندما أركب الحافلة، وفي ذلك الصباح ركبت الحافلة في سادِك[1] حيث تدير أمي مدرسة البنات.

كان ذلك في نهاية العُطل المدرسية، التي ما عدت أدري

---

(١) Sadec.

أيّها، وكنت قد ذهبت لقضائها في المنزل الوظيفي الصغير الذي تشغله أمي. في ذلك اليوم كنت عائدة إلى سايغون، إلى المدرسة الداخلية. وكانت حافلة أهل البلد الأصليين قد انطلقت من ساحة سوق سادِك. وكالعادة رافقتني أمي وعهدت بي إلى سائق الحافلة، وكانت تعهد بي دائماً إلى سائقي حافلات سايغون، تحسُّباً لوقوع حادث، أو حريق، أو اغتصاب، أو هجوم قراصنة، أو عطل مميت في المعدّية. وكالعادة أجلسني السائق قربه في المقعد الأمامي المخصّص للمسافرين البيض.

في أثناء هذه الرحلة كان يمكن للصورة أن تنفصل، كان يمكن أن تُنتَزع من الكل. كان يمكن أن توجد، كان يمكن التقاط صورة، مثل غيرها من الصور، في مكان آخر، وفي ظروف أخرى. غير أنها لم تكن. كان الموضوع أدقّ من أن يتسبّب بحصولها. مَن كان يمكنه التفكير في ذلك؟ ما كان لها أن تُلتقط إلا إذا أمكن استباق الحكم على أهميّة هذا الحدث في حياتي، أهمية عبور النهر هذا. والحال أنه بينما كان يجري عبور النهر كان لا يزال مجهولاً، حتى وجوده كان مجهولاً. وكان علمه عند الله وحده. من أجل ذلك لا توجد هذه الصورة، ولم يكن بالإمكان أن يحدث خلاف ذلك. كانت صورة مهملة، كانت منسِيّة. لم تكن منفصلة، ولا منتزعة من الكلّ. وهي تدين بفضيلتها لعدم الوجود هذا، فضيلة أنها تمثل مطلقاً، وأن تكون هي صانعة هذا المطلق بالضبط.

كان ذلك إذن خلال عبور رافد من نهر ميكونغ على معدّية بين فينهلونغ وسادِك في السهل الفسيح الموحل المزروع بالأرزّ جنوبي كوشنشين[١]، سهل الطيور.

نزلت من الحافلة. ذهبت إلى جوار الدربزين على متن المعدّية. وألقيت نظرة على النهر. أحياناً تقول لي أمي إنني لن أرى أبداً طيلة حياتي أنهاراً جميلة، وكبيرة، وبرّية، مثل هذه الأنهار، نهر الميكونغ وروافده التي تنحدر نحو المحيطات، هذه الأقاليم المائية التي تجري لتختفي في تجاويف المحيطات. في هذه الأراضي المنبسطة الممتدة على مدى النظر تجري هذه الأنهار بسرعة وتتدفق كما لو أن الأرض تنحني.

أنزل دائماً من الحافلة عندما نصل إلى المعدّية، في الليل أيضاً، لأنني أخاف دائماً، أخاف أن تنقطع حبال المرساة، وأن ننجرف نحو البحر. وفي التيار الرهيب أرى آخر لحظة في حياتي. ذلك أن التيار قوي جداً ويمكنه أن يجرف كل شيء، يجرف حجارة، كاتدرائية، مدينة. وفي داخل مياه النهر عاصفة تهبّ، وريح تضطرب.

أرتدي ثوباً من الحرير الطبيعي، بالياً، وشبه شفّاف. في السابق كان ثوباً لأمي، وذات يوم كفّت عن ارتدائه لأنها وجدته

---

(١) Cochinchine إقليم تاريخي في جنوب فيتنام يشمل المناطق التي تشكل دلتا الميكونغ، وكانت جزءاً من الأراضي التي استعمرها الفرنسيون (المترجم).

شفّافاً جداً فأعطتني إياه. هذا الثوب بلا كُمّين، يكشف عن الرقبة والكتفين، بذلك اللون الأسمر الداكن الذي يتخذه الحرير نتيجة الاستعمال. هذا ثوب أتذكّره. وأرى أنه يلائمني جداً. وضعت على خصري زُنّاراً جلدياً، لعله من زنانير أخويّ. ولا أتذكّر الحذاء الذي كنت أحتذيه في تلك السنوات وإنما أتذكر بعض الأثواب فقط. فقد كنت في معظم الأحيان عارية القدمين، أحتذي صندلاً مصنوعاً من القماش، وأنا أتحدث عن الزمن الذي سبق معهد سايغون. طبعاً، بعد ذلك صرت أنتعل أحذية على الدوام. في ذلك اليوم كان عليّ أن أحتذي زوجاً شهيراً من الأحذية عالية الكعب والمطعّمة بزخارف ذهبية، يومها لم أجد أفضل منه فاحتذيته. وكانت أمي قد اشترته لي في موسم التصفيات بسعر تصفية المصفّى. بهذا الحذاء المذهّب أذهب إلى المدرسة الثانوية. أذهب إلى المدرسة بحذاء مسائي مطبّع بزخارف من الماس الاصطناعي.

هذه رغبتي. ولا أطيق نفسي إلا بهذا الزوج من الأحذية، وما زلت أريد نفسي هكذا، فذلك الحذاء العالي الكعب هو أول حذاء اقتنيته في حياتي، وهو حذاء جميل، تغلّب على سائر الأحذية التي سبقته، أحذية الركض واللعب، المسطحة، ذات القماش الأبيض.

ليس الحذاء هو الشيء الغريب، والخارق، في لباس الصغيرة ذلك اليوم. ما حدث ذلك اليوم هو أن الصغيرة كانت

تضع على رأسها قبّعة رجل مسطحة الحوافّ، قبّعة من لَبِد لَيّن بلون خشب الورد مع شريط أسود عريض.

إن الالتباس المحدّد للصورة هو في تلك القبّعة.

كيف وصلتْ إليّ، لقد نسيت ذلك. لا أرى مَن كان يمكن أن يعطيني إياها. أظن أن أمي هي التي اشترتها لي بناء على رغبتي. اليقين الوحيد هو أنها كانت مشتراة بسعر تصفية المصفّى. كيف يُفسّر هذا الشراء؟ ما من امرأة، وما من فتاة، كانت تعتمر قبّعة رجل في هذه المستعمرة آنذاك. ولا أية امرأة من النسوة البلديات. وإليكم ما قد حدث: لقد جرّبت هذه القبّعة المصنوعة من اللّبد، لكي أضحك، هكذا، ولقد نظرت إلى نفسي في مرآة البائع، ولقد رأيت: تحت القبّعة الرجالية أن هزال الشكل القبيح، عيب الطفولة هذا، قد أصبح شيئاً آخر. لقد كفّ عن أن يكون معطىً فظاً، مشؤوماً، من معطيات الطبيعة. لقد أصبح، على العكس من ذلك تماماً، خياراً مضاداً للطبيعة، خياراً فكرياً. فجأة، أصبح مُراداً. فجأة رأيت نفسي كأنني أخرى، كما يمكن أن يُنظَر إلى أخرى، في الخارج، موضوعة في تصرّف الجميع، موضوعة على مرأى من الجميع، موضوعة في حركة المرور في المدن، وفي الطرقات، وفي الرغبة. أخذت القبّعة، ولم أعد أنفصل عنها، لديّ هذا الشيء، هذه القبّعة التي استحوذتْ عليَّ كلّياً وحدها. بالنسبة إلى الحذاء كان ينبغي أن يكون الأمر مماثلاً، ولكن بعد القبّعة. الحذاء يناقض القبّعة،

كما تناقض القبّعة الجسد النحيل، وعلى ذلك فالحذاء يناسبني.
كذلك ما عدت أتخلّى عنه هو أيضاً، وصرت أذهب بهذا الحذاء وهذه القبّعة إلى كل مكان، في الخارج، وفي جميع الأوقات، وفي جميع المناسبات، وبهما أذهب إلى المدينة.

عثرت على صورة لابني وهو في سنّ العشرين. أُخذت الصورة في كاليفورنيا مع صديقتيه أريكا وأليزابيت لينّار. إنه نحيل جداً حتى ليقال إنه أوغندي أبيض هو أيضاً.

وجدت له ابتسامة متكبّرة، وبدا كما لو أنه يسخر. يريد أن يعطي نفسه صورة مشوّهة لفتى متشرّد. يروق له أن يبدو هكذا، فقيراً، مع سحنة الفقير هذه، مع هذه الهيئة المضحكة لفتى هزيل. هذه الصورة هي الأقرب إلى الصورة التي لم تؤخذ لشابّة المعدّية.

تلك التي اشترت القبّعة الوردية ذات الحوافّ المسطحة والشريط العريض الأسود، إنها هي، تلك المرأة التي تظهر في صورة ما، هي أُمّي، أتعرّف إليها على نحو أفضل هناك مما أتعرّف عليها في صور أحدث. هي صورة لباحة بيت على ضفة بُحيرة هانوي الصغيرة. نظهر فيها مجتمعين، هي ونحن، أبناؤها. عمري أربع سنوات. أمي في وسط الصورة. أرى جيداً كيف أنها غير مرتاحة في وقفتها، وكيف أنها لا تبتسم، وكيف أنها تنتظر أن تُلتقط الصورة. من قسماتها المتجهّمة، ومن بعض الاضطراب في وقفتها ولباسها، ومن نظرتها الناعسة، أعرف أن

الطقس حارّ، وأنها مرهقة، وأنها ضجرة. لكن من كيفية ارتدائنا، ملابسنا، نحن أولادها، كالبؤساء، أجد حالةً ما كانت أُمّي تسقط فيها أحياناً وكنا نعرف علاماتها المبكرة ونحن في العمر الذي أخذت لنا فيه تلك الصورة، ولا سيّما تلك الطريقة التي تصبح فيها فجأة غير قادرة على غسلنا، ولا إلباسنا، وحتى أنها تصبح أحياناً عاجزة عن إطعامنا. حالة الإحباط الكبير والعجز عن مواصلة الحياة كانت أمي تمر بها يومياً. أحياناً كان ذلك الإحباط يدوم أياماً، وأحياناً يختفي مع الليل. وكان من حظي أن أرى أُمّاً يائسة يأساً مطلقاً حتى أن سعادة الحياة، مهما تكن غامرة، أحياناً، لا تستطيع أن تُسليها تماماً. والأمر الذي سأظل أجهله دائماً هو نوع الأفعال الملموسة التي كانت تحملها على تركنا كل يوم على هذا النحو. وفي تلك المرة ربما كانت تلك الحماقة التي ارتكبتها، ربما كان ذلك البيت الذي اشترته. بيت الصورة. الذي لم نكن بحاجة إليه البتّة وذلك حين كان والدي مريضاً جداً، وعلى وشك أن يموت في بضعة أشهر. أو لعلّها علمت أنها مريضة هي أيضاً بذلك المرض الذي سيموت منه هو. إن الأوقات تتزامن. وما أجهله أنا كما لا بد أنها كانت تجهله هو طبيعة المسلَّمات التي كانت تجتازها والتي أدّت إلى ظهور هذا الإحباط لديها. أهو موت أبي الماثل أمامنا، أم موت النهار؟ أم الارتياب في هذا الزواج؟ في هذا الزوج؟ في هؤلاء الأولاد؟ أم هو الأعمّ من كل ذلك، الارتياب في هذا المِلك؟

كان ذلك يحدث كل يوم. أنا واثقة من ذلك. وكان لا بد لذلك أن يكون قاسياً. وكان ذلك القنوط يظهر في لحظة معيّنة من كل يوم. ثم يلي ذلك استحالة التقدّم، أو النعاس، أو لا شيء أحياناً، أو على العكس شراء البيوت في بعض الأحيان، وتبديل المنازل، أو هذا المزاج أيضاً في أحيان أخرى، هذا المزاج فحسب، هذا الإرهاق، أو ملكة أحياناً، وكل ما كان يُطلب منها، وكل ما كان يُعرض عليها، ذلك البيت على ضفة البحيرة الصغيرة، من دون أي سبب، بينما كان والدي يحتضر، أو هذه القبّعة ذات الحوافّ المسطحة، لأن الصغيرة رغبت فيها كثيراً، أو هذا الحذاء المرصّع بذهب زائف. أو لا شيء، أو النوم، أو الموت.

لم أكن قد شاهدت من قبل فيلماً تظهر فيه هؤلاء الهنديات اللواتي يعتمرن هذا النوع من القبّعات ذوات الحوافّ المسطّحة مع الجدائل التي تتدلّى أمام أجسادهن. في ذلك اليوم كانت لديّ جدائل أنا أيضاً ولم أرفعها كما كنت أفعل عادة، غير أنها ليست الجدائل نفسها. لديّ جديلتان تتدليان أمام جسدي مثل هؤلاء النساء في السينما اللواتي لم يسبق أن رأيتهن قط لكنهما جديلتا طفلة. منذ أن امتلكت القبّعة لم أرفع شعري قط لكي اعتمرها. ومنذ بعض الوقت صرت أشدّ شعري بقوة وأسرّحه إلى الخلف وكنت أريد أن يكون سَبْطاً فلا يُرى إلا قليلاً. وفي كل مساء أسرّحه وأضفر جديلتيّ مجدداً قبل أن أنام كما علّمتني أمي.

شعري كثيف، منبسط، مؤلم، كتلة نحاسية تصل حتى كليتيّ. وغالباً ما يقال إن شعري هو أجمل ما فيّ وأنا أفهم أن ذلك يعني أنني لست جميلة. ذلك الشعر المعتبر طلبتُ أن يُقصّ في باريس وأنا في الثالثة والعشرين، بعد خمس سنوات على تركي لأمّي. قلت: قُصّ. فقصَّ. قصّه كلّه بحركة واحدة، ولتنظيف ساحة العمل لامس المقص البارد جلدَ الرقبة. ولما سقط الشعر على الأرض سُئلت إن كنت أريده ليعملوا لي منه حُزمة. قلت لا. بعد ذلك لم يعد يقال إنني كنت أمتلك شعراً جميلاً، أعني أنهم ما عادوا يقولون ذلك إلى هذا الحد، كما كانوا يقولون لي قبل قصّه. فيما بعد أصبحوا يقولون: لديها نظرة جميلة. والابتسامة أيضاً، لا بأس بها.

أنظروا إليّ وأنا على المعدّية، ما زلت محتفظة بذلك الشعر. عمري خمسة عشر عاماً ونصف العام. أصبحت متبرّجة. أضع على وجهي مرهم التوكالون، أحاول أن أخفي بُقع النمش أعلى الخدّين، وأسفل العينين. أضع فوق مرهم التوكالون مسحوقاً بلون اللحم، ماركة هوبيغان. هذا المسحوق لأمي تضعه عندما تذهب إلى سهرات الإدارة العامة. في ذلك اليوم وضعت أيضاً أحمر شفاه بلون داكن، كما كان رائجاً آنذاك، لون الكرز. لست أدري كيف حصلت عليه، وربما كانت هيلين لاغونيل هي التي سرقته من أُمّها من أجلي، ما عدت أدري. ليس لديّ عِطر، والموجود عند أمي هو ماء الكولونيا وصابون البالموليف.

على سطح المعدّية، بجانب الحافلة، سيارة ليموزين كبيرة سوداء مع سائق يرتدي زيّه، الرسمي المصنوع من قُطن أبيض. نعم، إنها سيارة كتُبي المأتمية الكبيرة. إنها سيارة موريس ليون. بولّيه. سيارة اللانسيا السوداء التي تملكها السفارة الفرنسية في كالكوتا لم تكن قد دخلت في الأدب بعد.

لا تزال بين السائقين والمعلّمين نافذة زجاجية ذات مزلاق، وفيها مقاعد متحرّكة أيضاً. وهي سيارة كبيرة بحجم غرفة.

في الليموزين رجل أنيق جداً ينظر إليّ. ليس أبيض. يرتدي ملابس على الطراز الغربي، طقماً من حرير هندي خشن فاتح اللون كالذي يرتديه رجال المصارف في سايغون. إنه ينظر إليّ. لقد اعتدت على أن ينظروا إليّ. ينظرون إلى النسوة، النسوة البيض في المستعمرات، وإلى الفتيات الصغيرات اللواتي في الثانية عشرة أيضاً. منذ ثلاث سنوات والرجال البيض ينظرون إليّ في الشوارع ويطلب إليّ أصدقاء أُمّي بلطف أن أذهب معهم لتناول بعض المقبّلات في بيوتهم عندما تكون زوجاتهم في النادي الرياضي يلعبن بكرة المضرب.

يمكنني أن أخدع نفسي، أن أعتقد أنني جميلة كالنسوة الجميلات، كالنسوة اللواتي يلفتن الأنظار، لأنهم ينظرون إليّ كثيراً في الحقيقة. لكنني أعرف أن المسألة ليست مسألة جمال بل شيء آخر، مثلاً، نعم، شيء آخر، روحيّ مثلاً. ما أريد

إظهاره مني أظهره، جميلة أيضاً إذا كان هذا ما يريدون أن أكونه، جميلة، أو حسناء، حسناء مثلاً من أجل العائلة، من أجل العائلة، لا أكثر، كل ما يريدونه مني يمكنني أن أكونه. وتصديقه. تصديق أنني فاتنة أيضاً. وما أن أصدّق ذلك حتى يصبح حقيقياً في عين مَن يراني والذي يرغب في أن أكون على ذوقه، أعرف ذلك أيضاً. هكذا يمكنني بكل وعي أن أكون فاتنة حتى وإن كنت مسكونة بإماتة أخي. بالنسبة إلى الموت توجد شريكة، هي أُمّي. أقول كلمة فاتنة كما كانوا يقولونها حولي، حول أطفال.

أنا على علم مسبّق. أعرف شيئاً ما. أعرف أن الثياب ليست هي ما يصنع النساء الجميلات إلى هذا الحد أو ذاك، ولا التجميل، ولا ثمن المراهم، ولا النُّدْرَة، ولا ثمن الحِليّ. أعرف أن المسألة في شيء آخر. لا أعرف أين هي. أعرف فقط أنها ليست هناك حيث تعتقد النساء. أنظر إلى النساء في شوارع سايغون، في محطات الأدغال، هنالك نسوة جميلات جداً، وبيضاوات جداً، يعتنين كل العناية بجمالهن هنا، وبخاصة في محطات الأدغال. هنّ لا يفعلنَ شيئاً، سوى أنهن يتراءينَ، يتراءين من أجل أوروبا، والعشاق، والعُطل في إيطاليا، والإجازات الطويلة لمدة ستة أشهر كل ثلاث سنوات عندما يتمكّن في النهاية من التحدّث عمّا يجري هنا، عن هذا الوجود الاستعماري الفريد، عن خدمة هؤلاء الناس، هؤلاء الخدّام،

الممتازة، عن النبات، عن الحفلات الراقصة، عن هذه الدارات البيضاء، الكبيرة بحيث يضيع المرء فيها، حيث يقيم الموظفون في المحطات البعيدة. هُنَّ ينتظرنَ. يرتدين الثياب من أجل لا شيء، يتراءين في ظلال تلك الدارات، يتراءين من أجل القابل من الأيام، يعتقدن أنهن يعشن رواية، وصار لديهن مشاجب طويلة ملأى بأثواب لا يدرين ما يفعلن بها، مجمّعة كالوقت، على طول تعاقب أيام الانتظار. بعضهن أصبحن مجنونات. بعضهن ملتصقات من أجل خادم شاب يلتزم الصمت، ملتصقات. تُسمع هذه الكلمة إذ تصيبهنّ، الضجة التي تحدثها، ضجة الصفعة التي تنجم عنها. بعضهنّ يتقاتلن.

هذا الحرمان اللاحق بالنساء من قبلهنّ وبأنفسهن لطالما بدا لي على أنه خطأ.

لم يكن هناك ما يجذب الرغبة. كانت الرغبة تكمن في المرأة التي تثيرها أو أنها لم توجد. كانت الرغبة موجودة هناك منذ النظرة الأولى أو أنها لم توجد مطلقاً. كانت الفهم المباشر للعلاقة الجنسية أو أنها لم تكن شيئاً. هذا، بعينه، ما عرفته قبل التجربة.

وحدها هيلين لاغونيل كانت بمنأى عن قانون الخطأ. كانت متخلّفة في الطفولة.

لبثت زمناً طويلاً من دون أن أملك أثواباً خاصة بي. أثوابي

هي أنواع من الأكياس، صُنِعت من أثواب قديمة لأمي هي نفسها أنواع من الأكياس. ما عدا الأثواب التي تطلب أمي من دو[1]، أن تخيطها لي. دو هي المربيّة التي لن تترك أمي أبداً حتى عندما ستعود إلى فرنسا، حتى عندما سيحاول أخي الأكبر أن يغتصبها في المنزل الوظيفي في سادِك، حتى عندما لن تحصل على أجرها. كانت دو قد تربَّت عند الأخوات الراهبات، وهي تطرّز وتعمل ثنيات، وتخيط باليد كما لم يعد أحد يخيط منذ قرون، تخيط بإبر دقيقة كالشعر. وبما أنها تطرّز جعلتها أُمّي تطرّز شراشف، وبما أنها تعمل ثنيات جعلتني أُمّي أخيط أثواباً ذات ثنيات، أثواباً ذات دوائر، أرتديها كأكياس، أثواباً لم تعد دارجة، طفولية دائماً، لها صفّان من الثنيات من الأمام وياقة مدوّرة، أو شرائط على التنّورة، أو دوائر مطرّزة بطريقة منحرفة لعمل «درزة». أرتدي هذه الأثواب كالأكياس مع زنانير تشوّهها، وعندئذٍ تصبح أبدية.

خمسة عشر عاماً ونصف العام. الجسد نحيل، وهزيل تقريباً، ونَهْدا طفلة، والوجه ملطّخ بلون وردي شاحب وبالأحمر. ثم هذا اللباس الذي كان يمكن أن يبعث على الضحك ولم يَضحك أحد. أرى جيداً أن كل شيء كان هناك. كل شيء هناك ولم يكن قد حدث شيء بعد. أراه في العيون،

---

(١) Dô.

كان كل شيء ماثلاً في العيون. أريد أن أكتب. قلت ذلك لأُمّي من قبل: ما أريده هو هذا، الكتابة. لا جواب في المرة الأولى. ثم سألتْ: تكتبين ماذا؟ قلت: أكتب كتباً، روايات. قالت بقسوة: بعد شهادة الأستاذية في الرياضيات سوف تكتبين إذا أردت، هذا لا يعود يعنيني. إنها ضدّ الكتابة، إذ إن الكتابة غير جديرة بالاهتمام، وليست من قبيل العمل، إنها مزحة. ستقول لي في ما بعد: فكرة طفل.

الصغيرة ذات القبّعة المصنوعة من لَبدِ في ضوء النهر المشوب بالطمي، وحيدة على جسر المعدّية، متكئة على الدربزين. قبعة الرجل تصبغ بلون الورد المشهد كلّه. إنه اللون الوحيد، في شمس النهر الضبابية، شمس الحرارة، اختفت الضفاف، وبدا النهر ملتحقاً بالأفق. النهر يجري خفية، لا يحدث أية ضجة، كالدم في الجسد. لا ريح خارج الماء. محرّك المعدّية مصدر الضجة الوحيد في المشهد، ضجة محرّك قديم مخلّع ذي سواعد حديدية، ومن حين إلى آخر تُسمع ضوضاء أصوات تتناهى برشقات خفيفة. ثم يتعالى نباح الكلاب من كل مكان، من وراء الضباب، من جميع القُرى. الصغيرة تعرف ربّان المعدّية منذ أن كانت طفلة يبتسم لها الربّان ويسألها عن أخبار السيدة المديرة. يقول إنه يراها تمرّ في الليل غالباً، وأنها غالباً ما تذهب إلى المزرعة في كمبوديا. الأُمّ بخير، تقول الصغيرة. النهر حول المعدّية يوشك على الطوفان، ومياهه الجارية تخترق

المياه الراكدة في مزارع الأرز، ولا تختلطان. لقد جمع النهر كل ما اعترضه منذ التونليزاب، الغابة الكمبودية، يجرف النهر كل ما يأتي، من أكواخ القش، من غابات، من حرائق مخمدة، من طيور ميتة، من كلاب نافقة، من نمور، من جواميس غارقة، من ناس غرقى، من طُعوم، من جزر الزنبقيات اللاصقة، والكل يمشي، نحو المحيط، ولا شيء لديه الوقت لكي يجري، الكل تجرفه عاصفة التيار الداخلي العميقة والمدوّخة، والكل يبقى معلّقاً على سطح قوة النهر.

أجبتها أن ما أريده قبل كل شيء هو أن أكتب، ولا شيء آخر غير هذا، لا شيء. كم أنها غيورة. لا جواب، بل نظرة خاطفة سرعان ما صرفتها عني، وهزّة كتفين خفيفة، لا تُنسى. سأكون أول من يذهب. يجب الانتظار بضع سنوات أيضاً حتى تفقدني، حتى تفقد هذه بالذات، هذه الطفلة. أما الابنان فليس هناك ما تخشاه بشأنهما. لكن هذه الطفلة كانت تعلم أنها سترحل ذات يوم، وسيكون بإمكانها أن تخرج. إنها الأولى في اللغة الفرنسية، قال لها مدير الثانوية: ابنتك، يا سيدتي، هي الأولى في الفرنسية. لم تقل أُمّي شيئاً، لا شيء، ليست راضية لأن ابنيها ليسا هما الأولين في الفرنسية. يا لها من قذارة، أُمّي، حبي، تسأل: وفي الرياضيات؟ فيقال لها: ليس بعد، لكن سيحصل ذلك. تسأل أُمّي: سيحصل ذلك متى؟ فيأتي الجواب: عندما تريده، يا سيدتي.

أمي، حبي، بمظهرها المضحك الذي لا يُصدَّق، مع جوربيها القطنيّين اللذين رتقتهما دو؛ لا تزال تعتقد أن عليها وهي تحت المدار الاستوائي أن تلبس جوربين لكي تكون السيدة مديرة المدرسة، وأن ترتدي أثوابها المثيرة للشفقة، والدميمة، التي رتقتها دو، وهي لا تزال تأتي مباشرة من مزرعتها البيكاردية المأهولة بالقريبات، وتستهلك كل شيء حتى النهاية، وتعتقد أنه ينبغي، ينبغي للمرء أن يستحق أحذيته، ولأنها أبلت كعب حذائها بالسير فهي تمشي بانحراف متألّمة أشد الألم، وشعرها معقوص في مؤخر رأسها كامرأة صينية، ما يشعرنا بالخجل، تجعلني أخجل وأنا في الشارع أمام المدرسة، وعندما تصل في سيارتها الـ ب ١٢ إلى المدرسة ينظر إليها الجميع، أما هي، فلا تلاحظ شيئاً، أبداً، هي امرأة وجِدت لتنغلق، لتقاتل، لتقتل. تنظر إليّ، وتقول: ربما تخرجين أنت من هذا الوضع. فكرتها ثابتة في الليل والنهار. ولا يعني ذلك أنه ينبغي الوصول إلى شيء ما. بل ينبغي الخروج من هناك حيث نكون.

عندما تستعيد أمي الهواء الطلق، وتخرج من القنوط، تكتشف قبّعة الرجل ذات الزخرفة الذهبية، تسألني ما هذا؟ فأقول لا شيء. تنظر إليّ، هذا يعجبها، وتبتسم، لا بأس بها، تقول، هذه تناسبك، تُحدث تغييراً. لا تسألني إن كانت هي التي اشترتها، فهي تعلم أنها هي التي اشترتها. وهي تعلم أنها قادرة على ذلك، وأننا في بعض الأحيان، تلك الأحيان التي كنت

أذكرها، كنا نبتزّ منها كل ما نريد، وأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ضدّنا. أقول لها: إنها ليست غالية الثمن إطلاقاً، لا تقلقي. تسأل: أين كان ذلك. فأقول: كان ذلك في شارع كاتينا[١]، في موسم التصفيات. ترمقني بلطف. يفترض بها أن تجد في مخيلة الصغيرة هذه علامة مشجعة، وهي أن تبتكر لنفسها هذه الطريقة في ارتداء الملابس. لم تتقبّل هذا التهريج، قلّة اللياقة هذه، فحسب، بل لقد أعجبتها قلة اللياقة هذه، وهي المصنّفة كأرملة، وترتدي ملابس رمادية كما لو أنها راهبة تركت الرهبنة.

هنا أيضاً تكمن العلاقة مع البؤس في قبّعة الرجل لأن المال يجب أن يصل إلى البيت، بطريقة أو بأخرى يجب أن يصل. حولها الصحارى، والأبنان هما الصحارى، فهما لا يفعلان شيئاً، والأراضي المالحة أيضاً، والمال سيبقى مفقوداً، وقد انتهى الأمر فعلاً. بقيت تلك الصغيرة التي تكبر، والتي ستعرف هي ذات يوم ربما كيف تأتي بالمال إلى هذا البيت. ولهذا السبب، الذي كانت تجهله، تسمح الأم لابنتها بالخروج مرتدية زي الطفلة العاهرة هذا. ومن أجل ذلك أيضاً تعرف الطفلة تماماً كيف تتصرّف لكي تصرف الاهتمام بها في تحوّله نحو تلك التي، هي، تأتي بالمال. وهذا ما يُضحك الأمّ.

لن تمنعها الأُم من القيام بذلك عندما ستبحث عن المال.

---

(١) Rue Catinax.

ستقول الطفلة: طلبت منها خمس مئة فرنك للعودة إلى فرنسا. وستقول الأم إن هذا أمر جيد، وإن هذا ما يلزم للإقامة في باريس، وستقول: سوف تكون الأمور على ما يُرام مع خمس مئة فرنك. وتعلم الطفلة أن ما تفعله، هي، هو ما كان يفترض بالأُم أن تختاره لابنتها، إذا ما تجرأت على ذلك، إذا ما امتلكت القدرة على أن تجرؤ، ولو أن الأذى الذي يسبّبه الفكر لم يكن هناك في كل يوم، ولم يكن مُضنياً.

في حكايات كتُبي التي تعود إلى طفولتي ما عدت أدري فجأة ما الذي تجنَّبت قوله، وما قلته، أظن أنني قلت الحب الذي كنا نكنّه لأُمّنا غير أنني لا أدري إذا ما قلت الكره الذي كنا نكنّه لها أيضاً.

والحب الذي كنا نكنّه بعضنا لبعض، والكره أيضاً، الرهيب، في هذه الحكاية المشتركة عن الخراب والموت والتي كانت حكاية هذه العائلة في جميع الأحوال، في حكاية الحب كما في حكاية الكره والتي لا تزال بمنأى عن كل إدراكي، وما زال يتعذّر عليّ بلوغها، مخبوءة في أعماق جسدي، عمياء كمولود في يومه الأول.

إنها المكان الذي يبدأ عند عتبته الصمت. فما يجري في هذه الحكاية هو الصمت بعينه. هذا العمل البطيء طوال حياتي. ما زلتُ هناك، أمام هؤلاء الأطفال الممسوسين، على نفس المسافة من اللُّغز. لم أكتب أبداً، مع اعتقادي بأنني كتبت، لم

احبّ أبداً، مع اعتقادي بأني أحببت، لم أفعل شيئاً أبداً سوى الانتظار أمام الباب المغلق.

عندما كنت على ظهر معدّية الميكونغ، في يوم الليموزين السوداء ذاك، لم تكن والدتي قد تخلّت عن مزرعة السدّ. ومن وقت إلى آخر كنا لا نزال نقطع الطريق ليلاً، كما كنا نفعل في الماضي، ونذهب إليها كل ثلاثة أشهر، حيث نقضي بضعة أيام. نبقى هناك على شرفة البيت الريفي[١] قُبالة جبل سيام. ثم نغادر. لم يكن لديها ما تفعله في المزرعة لكنها كانت تعود إليها. وكنت أنا وأخي الصغير نجلس قربها على الشرفة المواجهة للغابة. أصبحنا كبيرين جداً الآن، وما عدنا ننتظر طويلاً، ما عدنا نذهب لاصطياد الفهد الأسود في مستنقعات المصبّات، وما عدنا نذهب لا إلى الغابة ولا إلى قرى مزارع الفلفل. كل شيء كبر حولنا. لم يعد ثمة أطفال لا على الجواميس ولا في أي مكان آخر.

لقد أصبنا نحن أيضاً بالغرابة كما أصبنا بالبطء نفسه الذي أصاب أُمّنا. لم نتعلم شيئاً، من النظر إلى الغابة، من الانتظار، من البكاء. الأراضي المنخفضة ضاعت نهائياً.

كان الخدم يزرعون الأجزاء العليا، ويُترك لهم الأرزّ غير المقشور، ويبقون هناك من دون أن يتقاضوا أجراً، ويستفيدون من أكواخ القش التي كانت أمي قد أمرت ببنائها. وهم يحبّوننا كما

(١) Bungalow بيت من طابق واحد يكون في الريف أو على شاطىء البحر (المترجم).

لو كنا من أفراد أُسرهم، ويتصرفون كما لو أنهم يحرسون البيت الريفي وكانوا يحرسونه فعلاً. لا شيء ينقص آنية المائدة الفقيرة. والسقف مستمرّ في الاضمحلال. لكن الأثاث نظيف. وشكل البيت الريفي ماثل هناك مثل رسم؛ يُرى من الطريق. والأبواب تبقى مفتوحة كل يوم لكي يمر عبرها الهواء ويجفّف الخشب. وتُغلق في المساء أمام الكلاب الشاردة، وفي وجه مهرّبيَ الجبل.

إنكم ترون إذن أنني لم ألتق الرجل الغني صاحب الليموزين السوداء في مطعم ريام[1]، كما كنت قد كتبت، ولكن حدث ذلك بعد عامين أو ثلاثة أعوام على تخلّي أمي عن المزرعة، وكان اللقاء على المعدّية، في ذلك اليوم الذي أحكيه، وفي ذلك الضوء المشبع بالضباب والحرّ.

بعد عام ونصف العام على ذلك اللقاء عادت أُمّي معنا إلى فرنسا. سوف تبيع كل أثاثها. ثم ستذهب للمرة الأخيرة إلى السدّ، وستجلس على الشرفة قُبالة المغيب، وستنظر مرّة أخرى إلى سيام، مرّة أخيرة، ولن تراه بعدها أبداً، حتى عندما ستغادر فرنسا مجدداً، وعندما ستغيّر رأيها أيضاً وتعود مرّة أخرى إلى الهند الصينية لكي تتقاعد في سايغون، ومن ثم لن تذهب أبداً للجلوس قبالة ذلك الجبل، وفي مواجهة تلك الشمس الصفراء والخضراء فوق تلك الغاية.

---

(١) Ream.

نعم، عليّ أن أذكر أنها استأنفت نشاطها في وقت متأخر جداً من حياتها. لقد أنشأت مدرسة تُعلّم باللغة الفرنسية، هي المدرسة الفرنسية الجديدة، التي ستتيح لها أن تدفع قسماً من نفقات تعليمي وأن تُعيل ابنها البكر طوال المدة التي عاشها.

مات الأخ الصغير في غضون ثلاثة أيام من إصابته بالتهاب في القصبات الهوائية والرئة، لم يصمد أمامه القلب. وفي تلك الأثناء بالذات تركتُ أُمّي. كان ذلك إبّان الاحتلال الياباني. وقد انتهى كل شيء في ذلك اليوم. لم أعد أطرح عليها أسئلة عن طفولتنا، وعنها. فقد أصبحت ميتة في نظري مع موت أخي الصغير. وكذلك الأمر بالنسبة إلى أخي الأكبر. لم أتغلّب على الرعب الذي سبّباه لي فجأة. ما عدت أبالي بهما. ولا علمت عنهما شيئاً بعد ذلك اليوم. ولست أدري حتى الآن كيف تمكنتْ من سداد ديونها للمرابين الهنود. ذات يوم كفّوا عن المجيء. أراهم. إنهم جالسون في صالون سادِك الصغير، يرتدون تنانير بيضاء، ويمكثون هناك من دون أن ينسبوا بكلمة، يمكثون شهوراً، وسنوات. يصغون إلى أُمّي وهي تبكي وتشتمهم، من غرفتها، التي لا تريد أن تخرج منها، تصرخ طالبة أن يتركوها، وهم صُمٌّ، هادئون، مبتسمون، ولا يغادرون. ثم لم يبق منهم أحد ذات يوم. إنهم موتى الآن، الأمّ والأخوان، كذلك فات الأوان بالنسبة إلى الذكريات أيضاً. الآن ما عدت أحبّهم. وما عدت أدري إذا ما كنت قد

أحببتهم. لقد تركتهم. لم يعد في رأسي عِطر جلدها ولا في عينيّ لونُ عينيها. ما عدت أذكر الصوت، إلا ما كآن أحياناً صوت اللطافة مع تعب المساء. والضحك، ما عدت أسمعه، لا الضحك ولا الصراخ. انتهى كل ذلك، ما عدت أذكر. من أجل ذلك أكتب عنها بكثير من السهولة اليوم، أكتب بكثير من الإسهاب، وكثير من الانجذاب؛ أصبحت كتابة عاديّة.

كان عليها أن تبقى في سايغون من عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٤٩، تلك المرأة. في عام ١٩٤٢ مات أخي الصغير. ولم تعد قادرة على الانتقال إلى أي مكان. وهي ما زالت هناك، بالقرب من القبر، تقول. ثم إنها عادت إلى فرنسا في نهاية المطاف. كان عمر ابني سنتين عندما تقابلنا مجدداً. وكان قد تأخر الوقت كثيراً لكي نسترجع بعضنا بعضاً. أدركنا ذلك من النظرة الأولى. لم يعد ثمة شيء نسترجعه معاً. كان كل شيء قد انتهى إلاّ ما كان بينها وبين الابن البكر. لقد ذهبت لتعيش وتموت في لوار - إي - شير[١]. في قصر لويس الرابع عشر الزائف، حيث أقامت مع دو.

كانت لا تزال تخاف في الليل. وقد اشترت بندقية. وكانت دو تراقب في الغرف ذات السقوف المنحنية في الطبقة الأخيرة

---

(١) Loir-et-Cher إقليم يقع في وسط شرق فرنسا يجتازه نهران هما اللوار والشير ومنهما استمدّ اسمه (المترجم).

من القصر. وكانت قد اشترت أيضاً قطعة أرض لابنها البكر بالقرب من أمبواز[1]، وكان في تلك الأراضي غابات. وقد عمل الابن على قطعها. وذهب إلى باريس ليقامر بثمنها في ناد للعبة الباكارا[2]. وفي ليلة واحدة خسر الغابات. هناك تنبعث الذكرى فجأة، وحيث يمكن أن يكون أخي قد أسال دموعي، وذلك بعد خسارة أموال تلك الغابات. ما أعرفه هو أنهم وجدوه نائماً داخل سيارته، في مونبارناس[3]، أمام الكوبول[4] وأنه يريد أن يموت. بعد ذلك ما عدت أعرف ما الذي جرى. ما كانت تفعله، هي، بقصرها لا يمكن تخيّله أبداً، وكان ذلك دائماً للابن البكر الذي لا يعرف، هو، الطفل ابن الخمسين سنة، أن يكسب المال. اشترت حاضنات كهربائية ووضعتها في القاعة الكبيرة في الطابق السفلي، وقد فقّست ستّ مئة صوص دفعة واحدة. وأصبح لديها أربعون متراً مربّعاً من الصيصان. وكانت قد أخطأت في استعمال الأشعة ما دون الحمراء، فلم يتمكن أي صوص من أن يتغذى. وذلك أن الست مئة صوص كانِ لها منقار غير ملائم، لا ينطبق، فنفقت كلها من الجوع، ولم تعاود هي الكرّة أبداً. كنت قد أتيت إلى القصر أثناء تفقيس الصيصان؛ وكان هذا الحدث عيداً.

---

(١) Amboise مدينة في وسط فرنسا على نهر اللوار فيها قصور تاريخية، في أحد قصورها الملكية اعتقل الأمير عبدالقادر الجزائري لمدة أربع سنوات (المترجم).

(٢) Bacara.

(٣) Montparnasse أحد أحياء باريس الراقية (المترجم).

(٤) La Coupole مبنى في بولڤار مونباناس هو فندق حالياً (المترجم).

بعد ذلك بلغ تعفّن الصيصان النافقة وتعفّن غذائها حداً لم أعد أستطيع معه أن آكل في قصر أمي من دون أن أتقيأ.

ماتت بين دو وذلك الذي تسمّيه ابنها في غرفتها الكبيرة في الطابق الأول، تلك الغرفة التي وضعت فيها خرافاً لتنام، وضعت أربعة إلى ستة خراف حول سريرها في فترات الجليد، خلال عدة شتاءات، الشتاءات الأخيرة.

هناك، في المنزل الأخير، منزل اللوار، عندما لم تعد تذهب وتجيء من دون انقطاع، في نهاية أمور تلك العائلة، هناك رأيت بوضوح الجنون للمرة الأولى. رأيت أن أمي مجنونة على نحو بيّن. ورأيت أن دو وأخي كان لهما على الدوام منفذ إلى ذلك الجنون؛ وتبيَّن لي أنني لم أر أبداً أمي في حالة كونها مجنونة. ولقد كانت مجنونة، بالولادة. كان الجنون يسري في دمها. ولم تكن مريضة بجنونها. كانت تعيشه كما تعيش الصحة بين دو والابن البكر. ولا يدرك ذلك أحد سواهما. كان لديها على الدوام كثير من الأصدقاء، وكانت تحتفظ بالأصدقاء أنفسهم لسنوات طويلة، كما كانت تكتسب أصدقاء جدداً، في ريعان الشباب غالباً، من بين الوافدين الجدد إلى المحطات الريفية، أو كما حصل في وقت لاحق، من بين أهالي تورين[1] وفيهم

---

(١) Touraine. مقاطعة في الريف الفرنسي فيها أكبر القصور التاريخية قاعدتها مدينة تور Tours (المترجم).

متقاعدون من المستعمرات الفرنسية. وكانت تبقي الناس بالقرب منها، ناس من كل الأعمار، بسبب ذكائها الحاد، كما كانوا يقولون، وبسبب بشاشتها، تلك البشاشة الطبيعية الفريدة التي لم تسأم منها أبداً.

لا أدري مَن التقط صورة اليأس. صورة باحة البيت في هانوي[1]. لعلّه أبي للمرة الأخيرة. فبعد بضعة أشهر سوف يعود إلى فرنسا لسبب صحي. قبل ذلك، كان قد غيّر وظيفته، وعُيّن في بنوم ـ بنه[2]، حيث مكث بضعة أسابيع. ومات في أقلّ من سنة. وكانت أمي قد رفضت أن تتبعه إلى فرنسا، وبقيت هناك حيث كانت، متوقّفة هناك. في بنوم ـ بنه، في ذلك المنزل الرائع المطل على الميكونغ، القصر القديم لملك كامبوديا، وسط هذا المنتزه المرعب، الممتد على هكتارات عدّة، حيث يتملّك الخوف أُمّي. وفي الليل كانت تخيفنا. كنا ننام نحن الأربعة معاً في سرير واحد. تقول إنها تخاف من الليل.

في ذلك المنزل سوف تعلم أمي بموت أبي. سوف تعلم بذلك قبل وصول البرقية، عشية الوفاة، بعلامة كانت قد رأتها هي وحدها وفهمتها، من ذلك الطائر الذي نادى في قلب الليل،

---

(١) Hanoi. مدينة أصبحت عاصمة فيتنام عام ١٩٧٦ وكانت سابقاً عاصمة فيتنام الشمالية (المترجم)

(٢) Pnom-Penh. عاصمة كمبوديا وأكثر مدنها اكتظاظاً بالسكان (المترجم).

مذعوراً، ضائعاً في مكتب واجهة القصر الشمالية، مكتب أبي. هناك أيضاً، بعد بضعة أيام مرّت على موت زوجها، وجدت أُمّي نفسها قُبالة صورة أبيها، صورة أبيها الخاص بها. تشعل الضوء. فتراه هناك. يقف بالقرب من الطاولة، منتصباً، في قاعة القصر الكبيرة المثمّنة الزوايا. وهو ينظر إليها. أذكر صُراخاً، نداءً. لقد أيقظتنا وروت لنا ما رأت، كيف كان يرتدي ثيابه، وأنه كان في طقم يوم الأحد، الرمادي، روت كيف كان يقف، كيف كانت نظرته، تحدّق فيها مباشرة. قالت: ناديته كما كنت أناديه وأنا صغيرة. وقالت: لم أشعر بالخوف. وركضت نحو الصورة المختفية. كلاهما ماتا في تواريخ وساعات الطيور، والصور. من هنا، يقيناً، منشأ الإعجاب الذي كنا نكنّه لمعرفة أمي، في جميع الأمور، بما في ذلك أمور الموت.

نزل الرجل الأنيق من سيارة الليموزين، وكان يدخّن سيجارة إنكليزية. نظر إلى الشابة ذات القبّعة الرجالية والحذاء الذهبي. تقدّم نحوها ببطء. وبدا جلياً أنه خجول. لم يبتسم للوهلة الأولى. باديء ذي بدء قدّم إليها سيجارة. وكانت يده ترتجف. كان ثمة ذلك الفارق العِرقي، فلم يكن أبيض، وكان عليه أن يتغلّب على هذا الفارق، ولذلك كان يرتجف. قالت له إنها لا تدخّن، لا شكراً. لم تقل شيئاً آخر، لم تقل له دعني بسلام. عندئذٍ أصبح أقل خوفاً. وعندئذٍ قال لها إنه يظنّ أنه يحلم. لم تردّ. لا داعي لأن ترد، وعلام ترد. إنها تنتظر. عندئذٍ سألها:

لكن من أين تأتين؟ قالت إنها ابنة معلّمة مدرسة البنات في سادِك. فكّر ثم قال إنه سمع كلاماً عن تلك السيدة، أُمّها، عن قلّة حظها مع تلك المزرعة التي اشترتها في كمبوديا، أليس الأمر كذلك؟ نعم هو كذلك.

كرّر القول إنه لأمر عجيب حقاً أن يراها على هذه المعدّية. في الصباح الباكر، فتاة جميلة مثلها، أنتِ لا تدرين كم أنه من غير المتوقع وجود فتاة بيضاء في حافلة خاصة بالأهالي.

قال لها إن القبّعة تناسبها، بل تناسبها تماماً، كونها... أصيلة... قبّعة رجل، لِمَ لا؟ إنها جميلة جداً، ويمكنها أن تسمح لنفسها بكل شيء.

تنظر إليه. تسأله مَن هو. يقول إنه عائد من باريس حيث أنهى دراسته؛ وإنه يسكن في سادِك هو أيضاً، على ضفة النهر تماماً، في البيت الكبير ذي الشرفات الواسعة المحاطة بحواجز خزفية زرقاء. تسأله مَن يكون؟ يقول إنه صينيّ، وأن عائلته جاءت من الصين الشمالية، من فو ـ شوين[1]. أتريدين أن أوصلك إلى منزلك في سايغون؟ توافق، يقول للسائق أن يأخذ حقائب الشابة من الحافلة ويضعها في السيارة السوداء.

صينيّ. هو من تلك الأقلّية المالية ذات الأصل الصيني التي تملك كل العقارات الشعبية في المستعمرة. إنه ذاك الذي كان

---

(١) Fou-Chouen.

يعبر الميكونغ في ذلك اليوم في اتجاه سايغون.

تدخل إلى السيارة السوداء. ينغلق الباب. فجأة ينجم ضيق لا يكاد يُحسّ، ينجم، تعب، ينجم النور على النهر الذي يتكدّر، الذي يوشك أن يتكدّر. كذلك ينجم صممٌ خفيف جداً، ينجم ضباب، في كل مكان.

لن أسافر أبداً في حافلة الأهالي. من الآن فصاعداً سيكون لديّ ليموزين تقلّني إلى المدرسة وتعيدني إلى القسم الداخلي. سوف أتناول الطعام في أفخم الأماكن في المدينة. وسأكون هناك دائماً لكي أتأسّف على كل ما أفعله، وكل ما أتركه، وكل ما آخذه، الحسن والقبيح، الحافلة، سائق الحافلة الذي كنت أضحك معه، ماضغات التنبول في المقاعد الخلفية، الأطفال على حاملات الحقائب، عائلة سادِك، رعب عائلة سادِك، سكوتها العبقري.

كان يتحدّث. كان يتحدّث عن صخرة في باريس، عن الباريسيات الرائعات، عن الأعراس، عن القنابل، آه لا لا، عن الكوبول[١]، عن روتوند[٢]، أنا أفضّل الروتوند، عن علُب الليل، عن تلك الحياة «الرائعة» التي عاشها طوال عامين. كانت تصغي، مرهفة السمع إلى المعلومات الواردة في حديثه والمنصبّة على الثراء والتي كان بإمكانها أن تعطي مؤشّراً على مبالغ

---

(١) (٢) La Coupole - La Rotonde مطعمان شهيران في باريس (المترجم).

بالملايين. كان يمضي في سرده. كانت أُمّه هو ميتة، وكان هو ابناً وحيداً. لم يبق له سوى والده الذي يملك المال. لكنكِ تعلمين مَن يكون، إنه عاكِف على غليونه يدخّن الأفيون في مواجهة النهر منذ عشر سنين؛ ويدير ثروته من سريره الميداني. قالت إنها ترى.

سوف يرفض زواج ابنه من العاهرة الصغيرة البيضاء من مركز سادِك.

تبدأ الصورة قبل أن يدنو من الطفلة البيضاء بالقرب من الحاجز، لحظة نزوله من الليموزين السوداء، عندما بدأ يقترب منها، وكانت هي تعرف ذلك، تعرف أنه خائف.

منذ اللحظة الأولى كانت تعرف شيئاً ما من هذا القبيل، ما يعني أنه بات تحت رحمتها. وعلى ذلك يمكن لآخرين غيره أن يكونوا تحت رحمتها أيضاً متى سنحت الفرصة لذلك. تعرف أيضاً شيئاً آخر، تعرف أنه لا ريب في أن الوقت قد حان من الآن فصاعداً لكي تصبح عاجزة عن الإفلات من بعض الواجبات حيال نفسها. وأن الوالدة لا ينبغي أن تعلم بشيء من ذلك، ولا ينبغي ذلك للأخوين أيضاً، هذا ما عرفته أيضاً في ذلك اليوم. حالما دخلت إلى السيارة السوداء عرفت ذلك، عرفت أنها باتت بمعزل عن تلك العائلة للمرة الأولى وإلى الأبد. من الآن فصاعداً ما عاد لهم أن يعلموا بما سيحلّ بها. أن تُؤخذ منهم،

أن تُخطف منهم، أن يجرحوها لهم، أن يفسدوها لهم، ما عاد ينبغي لهم أن يعلموا بشيء من ذلك كله. لا الأم، ولا الأخوان. سيكون هذا مصيرهم من الآن فصاعداً. هذا ما بات يُبكى له في الليموزين السوداء.

الآن سوف تتعامل الطفلة مع هذا الرجل، الأول، هذا الذي قدّم نفسه إليها على المعدّية.

سرعان ما حلّ ذلك اليوم، يوم الخميس. في كل يوم كان يأتي إلى المدرسة لكي يأخذها إلى القسم الداخلي. ثم جاء ذات مَرّة إلى القسم الداخلي بعد ظهر يوم خميس. وأخذها في السيارة السوداء.

حدث ذلك في شولن[1]. قُبالةَ الجادّات التي تصل المدينة الصينية بوسط سايغون، تلك الشوارع العريضة على النمط الأميركي التي تسلكها عربات الترام، ومركبات الجرّ، والحافلات. كان ذلك في وقت مبكر من بعد الظهر. وقد أفلتت من النزهة الإلزامية لفتيات القسم الداخلي.

إنها شقة صغيرة تقع جنوبي المدينة. المكان جديد. مؤثث على وجه السرعة، كما يقال، بأثاث على الطراز الحديث مبدئياً. يقول: أنا لم أختر الأثاث. كان الظلام يخيّم على الغرفة

---

(١) Cholen.

الصغيرة، ولم تطلب منه أن يفتح درفات النوافذ. كانت من دون إحساس محدَّد، ومن دون حقد، ومن دون اشمئزاز أيضاً. ثمة شيء من الرغبة حقاً لكنها تجهل ذلك. لقد وافقت على المجيء عندما طلب منها ذلك مساء أمس. إنها هنا حيث يجب أن تكون، مرتحلةً هنا، تشعر بشيء من الخوف. لربما بدا بالفعل أن ذلك يجب أن يتناسب ليس مع ما تنتظره فحسب وإنما يتناسب أيضاً مع ما كان يجب أن يحدث على وجه الدقّة في حالتها هي. إنها متنبّهة جداً إلى مظهر الأشياء الخارجي، إلى النور، إلى ضوضاء المدينة التي كانت غارقة فيها. كان، هو، يرتجف، نظر إليها في البداية كما لو كان ينتظر منها أن تتكلّم، غير أنها لم تتكلّم. عندئذٍ لم يتحرّك هو، لم يجرّدها من ثيابها، قال إنه مجنون بحبّها، قال ذلك بصوت خافتٍ جداً. ثم سكت. لم تجبه. كان بإمكانها أن تجيب بأنها لا تحبّه. لم تقل شيئاً. فجأة أدركت، هناك، في الحال، أدركت أنه لا يعرفها، وأنه لن يعرفها أبداً، وأنه لا يمتلك الوسائل لمعرفة الكثير من الفساد، وللقيام بالكثير من الالتفافات لكي يوقع بها، وهو لن يستطيع ذلك أبداً. كان عليها هي أن تعرف، وهي تعرف. انطلاقاً من جهله هو عرفت فجأة: لقد أعجبها وهما على المعدّية. إنه يعجبها، والأمر لا يتوقّف إلا عليها وحدها.

تقول له: كنتُ أفضّل ألاّ تحبّني. حتى وإن أحببتني فإنني أرغب في أن تفعل معي ما تفعله عادة مع النساء. ينظر إليها

كالمذعور، ويسأل: أهذا ما تريدينه؟ تقول نعم. أخذ يتألّم هناك، في الغرفة، وللمرة الأولى كفّ عن الكذب حول هذه النقطة. يقول لها إنه يعرف أنها لن تحبّه أبداً. تتركه يقول ذلك. في البداية تقول إنها لا تعرف، ثم تدعه يقول ذلك.

يقول إنه وحيد، وحيد على نحو فظيع مع هذا الحبّ الذي يكنّه لها. تقول له إنها وحيدة هي أيضاً. لا تقول مع ماذا. يقول: لقد تَبِعتنِي إلى هنا كما كان يمكنك أن تتبعي أي رجل آخر. تردّ بأنها لا تستطيع أن تعرف، وأنها لم يسبق لها أن تبعت رجلاً إلى غرفة. تقول له إنها لا تريد أن يكلّمها، وأن ما تريده هو ما يفعله عادةً مع النساء اللواتي يأتي بهنّ إلى غرفته. ترجوه أن يتصرّف معها على هذا النحو.

نزع الثوب، رماه، نزع السروال القطني الأبيض الصغير وحملها عارية هكذا إلى السرير. وعندئذٍ استدار إلى الجهة الأخرى من السرير وأخذ يبكي. أما هي، البطيئة، الصبورة، فأعادته إليها وراحت تخلع عنه ثيابه. تفعل ذلك وعيناها مغمضتان. ببطء، يريد أن يقوم بحركات لكي يساعدها. تطلب منه ألاّ يتحرّك. تقول إنها تريد أن تفعل ذلك بنفسها. تفعل ذلك. تنزع ثيابه. وبناء على طلبها يحرّك هو جسده على السرير، لكن برفق، بخفة، كأنما يحاذر أن يوقظها.

الجِلد ذو نعومة فائقة. الجسد، الجسد نحيل، بلا قوّة، بلا عضلات، كأنه مريض، في طور النقاهة، إنه ضعيف جداً، ويبدو

أنه عُرضة للإهانة، وأنه يتألم. لا تنظر إلى وجهه. لا تنظر إليه. تلمسه. تلمس نعومة الجنس، نعومة الجلد، تداعب اللون المذهّب، تداعب الجديد المجهول. يئنّ، يبكي. إنه واقع في حُبٍّ مَقيت.

يفعل ذلك باكياً. في البدء كان الألم، وبعد ذلك الألم باتت هي مأخوذة بدورها، باتت متغيّرةً، مُنتزعةً ببطء، مدفوعةً نحو المتعة، معانقة نفسها.

لا شكل للبحر، لكنه ببساطة لا نظير له، من قبل، على المعدّية، قبل أن توجد، كان يمكن للصورة أن تشارك في تلك اللحظة.

عبرت صورة المرأة ذات الجوربَين المرقّعين الغرفةَ. أخيراً ظهرت كطفلة. كان الابنان يعرفان ذلك من قبل. ولم تكن الابنة قد عرفته بعد. وهم لن يتكلّموا أبداً مع الأم معاً عن تلك المعرفة التي يمتلكونها والتي تفصلهم عنها، عن تلك المعرفة الحاسمة، الأخيرة، معرفة طفولة الأم.

الأم لم تعرف المتعة.

ما كنت أعرف أنني أنزف. يسألني إن كنت قد تأذّيت، فأقول كلا، يقول إنه سعيد بذلك. يمسح الدم، يغسلني، أنظر إليه وهو يفعل ذلك. يعود مجدداً دونما إحساس، يصبح مشتهىً من جديد. أتساءل كيف جاءتني القوة حتى انتهكت المحظور

الذي فرضته أُمي. مع هذا الهدوء، هذا التصميم. كيف بلغت حَدَّ الذهاب «إلى آخر الفكرة».

نتبادل النظرات. يحتضن جسدي. يسألني لماذا أتيت. أقول إنه كان عليّ أن أفعل، وأن ذلك كان كالواجب. هذه المرّة الأولى التي نتحادث فيها. أحدّثه عن حياة أخويّ. أقول إننا لا نملك المال. ثم لا أقول شيئاً آخر. كان هو يعرف هذا الأخ البكر، كان قد التقاه في أماكن التدخين في المركز الريفي. أقول إن هذا الأخ يسرق أمي لكي يذهب ليدخّن، وأنه يسرق الخدم، وأن أصحاب أماكن التدخين يأتون أحياناً مطالبين أمي بالمال. أحدّثه عن السدود. أقول إن أمي ستموت، وأن هذا لا يمكن أن يستمر. وأن موت أمي الوشيك هو أيضاً مرتبط بما حدث لي اليوم.

يرثي لي، فأقول له أن لا، وأنني لست أهلاً للرثاء، وأن لا أحد يستحق الرثاء، سوى أمي. يقول لي: لقد أتيتِ لأنني أملك المال. أقول إنني أشتهيه كما أشتهي ماله، وأنني حين رأيته كان في تلك السيارة، في المال، وبالتالي لا أعرف ما كان يمكنني أن أفعل لو كان الأمر خلاف ذلك. يقول: أريد أن آخذك، أن أرحل معك. أقول إنني لا أستطيع الآن أن أترك أمي دون أن أموت غمّاً. يقول أن لاحظ له معي بالتأكيد، إلاّ أنه سوف يعطيني بعض المال، وأن عليَّ أن لا أقلق. يتمدّد على السرير مجدداً، ومجدداً نصمت.

ضوضاء المدينة قوي جداً، في الذاكرة هو صوت فيلم مرتفع جداً، يصمّ الآذان. أذكر جيداً، كانت الغرفة مظلمة، ونحن لا نتكلم، كانت محاطة بصخب المدينة المتواصل، محمولة بالمدينة، محمولة بقطار المدينة. لا زجاج للنوافذ، وهناك ستائر ودَرفات. تُرى على الستائر ظلال الناس الذين يمرّون على الأرصفة المشمسة. هذه الحشود ضخمة على الدوام. الظلال مرقّشة بشقوق الدرفات. قرقعات الصنادل الخشبية تطرق الرأس، والأصوات صارّة ثاقبة، واللغة الصينية هي لغة صارخة كما أتخيّل دائماً لغات الصحارى، إنها لغة غريبة بصورة لا تصدّق.

إنه أُفول النهار في الخارج، يُعرَف ذلك من ضوضاء الأصوات، ومن ضجيج التنقلات المتزايدة أكثر فأكثر، والمختلطة أكثر فأكثر.

السرير مفصول عن المدينة بهذه الدرفات ذات الشقوق المنيرة، وبهذا الستار القطني. وما من مادّة صلبة تفصلنا عن الناس الآخرين. هم لا يعلمون بوجودنا، أما نحن، فنحن ندرك شيئاً ما من وجودهم، ومن مُجملَ أصواتهم، ومن حركاتهم، مثل صفّارة إنذار تطلق صخباً مُنكسراً، حزيناً، بلا صدى.

تصل إلى الغرفة روائح حلوى الكرميلة، رائحة فستق عبيد محمّص، رائحة حساءات صينية، رائحة لحوم مشويّة، رائحة

أعشاب، رائحة الياسمين، والغبار، والبخور، ونار الفحم الخشبي، والنار هنا تُحمل في سلال، وتُباع في الشوارع، ورائحة المدينة هي رائحة قرى الدغل والغابة.

رأيته فجأة في مئزر حمّام أسود. كان جالساً، يشرب الويسكي، ويدخّن، قال لي إنني نمت، وإنه استحمّ. ما كنت قد شعرت بقدوم النعاس. أنار لمبة على طاولة منخفضة.

هذا رجل ذو عادات، رحت أفكر فيه فجأة. لا بد أنه في غالب الأحيان تقريباً يأتي إلى هذه الغرفة، هذا رجل لا بدّ أنه يمارس الجنس كثيراً، هذا رجل يخاف، لا بد أنه يمارس الجنس كثيراً لكي يقاوم الخوف. أقول له إنني أحبّ فكرة أن لديه كثيراً من النساء، وأن أكون من ضمن هؤلاء النسوة، مختلطة بهن. ينظر أحدنا إلى الآخر. يفهم ما قلته للتوّ. تتغيّر النظرة فجأة، تصبح مُزيّفة، متجمّدة في الشرّ، في الموت.

أقول له أن يأتي، أنّ عليه أن يعاود أخذي، يأتي. تفوح منه رائحة السيجارة الإنكليزية الطيّبة، العطر الغالي، تفوح منه رائحة العسل، ولطول ارتدائه الحرير اكتسب جلده رائحة الحرير، النكهة القوية لحرير التوسة الهندي، رائحة الذهب، إنه مُشتهى. أعبّر له عن هذه الرغبة فيه. يقول لي أن أنتظر أيضاً. يحدّثني، يقول إنه عرف على الفور، منذ عبور النهر، أنني سأكون هكذا بعد عاشقي الأول، وأنني سأحبّ الحبّ، يقول إنه يعرف من

قبل أنني سأخدعه وأنني سأخدع أيضاً كل الرجال الذين سأكون معهم. يقول إنه في ما يتعلّق به شخصياً كان هو أداة تعاسته الخاصة. كنت سعيدة بكل ما بشّرني به وعبّرت له عن ذلك. فجأة أصبح فظاً، وأصبح شعوره يائساً، وارتمى عليّ، وراح يأكل نهدَي الطفلة، راح يصرخ، ويشتم. أغمضتُ عينيّ على اللذة القوية. أفكر: إنه معتاد على ذلك، هذا ما يفعله في الحياة، الحبّ، ولا شيء غير الحب. اليدان خبيرتان، رائعتان، كاملتان. أنا محظوظة جداً، هذا واضح، كأنه يزاول مهنة أتقنها من دون أن يعرف، وهو يعلم ما يجب أن يعمله، وما يجب أن يقوله. ينعتني بالعاهرة، وبالحقيرة، ويقول لي إنني حبّه الوحيد، وهذا ما يجب أن يقوله وهذا ما يُقال عندما يُترك للقول أن ينطلق على سجيّته، وعندما يُترك للجسد أن يفعل ويبحث، ويجد ويأخذ ما يريد، وهنا كل شيء صالح، ولا عيب فيه، فالعيوب مستورة، وكل شيء يجرفه السَّيل، ويندفع بقوة الرغبة.

ضوضاء المدينة لصيقة جداً، قريبة جداً، حتى ليسمع احتكاكها على خشب الدرفات. تُسمع كما أنها تعبر الغرفة. أداعب جسده في هذه الضوضاء، هذا العبور. البحر، المدى الشاسع الذي يتجمّع، يبتعد، ويعود. كنت أطلب منه أن يفعل ذلك أيضاً وأيضاً. أن يفعل لي ذلك. وقد فعله. فعله في دسامة الدم. وكان يفعل ذلك في الحقيقة لدرجة الموت. وكان ذلك مميتاً.

أشعل سيجارة وناولني إياها. وبصوت خافت جداً بالقرب من فمي كلّمني. كلمته أنا أيضاً بصوت خافت. ولأنه لا يعرف أن يتكلّم عن نفسه أتكلّم أنا نيابة عنه، ولأنه يعرف أنه ينطوي على أناقة أصيلة أعبّر أنا عن ذلك.

المساء هو الذي يأتي الآن. يقول لي إنني سأتذكر طوال حياتي بعد الظهر هذا، حتى بعد أن أكون قد نسيت وجهه، ونسيت اسمه. أسأل إن كنت سأتذكر البيت. يقول لي: انظري إليه جيداً. أنظرُ إليه. أقول إنه مثل سائر البيوت. يقول لي إنه كذلك، كالمعتاد دائماً.

ما زلت أرى الوجه، وأتذكر الاسم. ما زلت أرى الحيطان المبيضّة والستار النسيجي المقابل للموقد، والباب الآخر المقوّس المؤدي إلى الغرفة الأخرى وإلى حديقة في الهواء الطلق ـ النباتات ميتة من الحرّ ـ محاطة بأسوار زرقاء مثل ڤيلاّ سادِك الكبيرة ذات الشرفات المتدرّجة التي تؤدي إلى الميكونغ. هذا سكان كئيب، عاصف.

يسألني أن أخبره بما أفكر. أقول إنني أفكر في أمي، وأنها ستقتلني إذا ما عرفت الحقيقة. أرى أنه يبذل جهداً ثم يقول، يقول إنه يفهم ما تريد أن تقوله أمي، يقول: هذا عار. يقول إنه لا يستطيع أن يحتمل فكرة العار في حال الزواج. أنظر إليه. ينظر إليّ بدوره، ويعتذر بكبرياء. يقول: أنا صينيّ. نبتسم.

أسأله إن كان من المألوف أن يكون المرء حزيناً كما هو حالنا. يقول إن ذلك عائد إلى مضاجعتنا في النهار، في لحظة بلوغ الحرارة أوجها. يقول إن الأمر رهيب على الدوام بعد ذلك. يبتسم، يقول: إذا ما تحاببنا أو لم نتحابب فالأمر رهيب دائماً. يقول إن ذلك سوف يزول مع الليل، حالما يحلّ الليل. أقول له إن هذا الحزن لم يتولّد نتيجة المضاجعة في النهار فقط، وأنه يخدع نفسه بذلك، وأنني أشعر بحزن كنت أنتظره، وأنه لا يأتي إلا مني، وأنني كنت حزينة على الدوام. وأنني أرى هذا الحزن أيضاً في الصور التي أُخذت وأنا صغيرة جداً. وأن بإمكاني إلى حدّ ما أن أعطي هذا الحزن، مع الاعتراف بأنه الحزن الذي لازمني دائماً، اسمي الذي يشبهني تماماً. أقول له اليوم إن هذا الحزن بركة، بركة أن تحلّ بي مصيبة بشّرتني بها أمي منذ زمن بعيد عندما كانت تصرخ في صحراء حياتها. أقول له: لم أفهم جيداً ما تقوله أمي لكنني أعرف أن هذه الغرفة هي ما كنت أنتظره. أتكلّم من دون أن أنتظر الجواب. أقول له إن أمي تصرخ بما تعتقده مثل رُسل الله. تصرخ معلنة أنه لا ينبغي انتظار أيّ شيء من أي شخص، ولا من أيّة دولة، ولا من أيّ إله. ينظر إليّ وأنا أتكلّم، لا يرفع عينيه عني، ينظر إلى فمي عندما أتكلّم، أنا عارية، يداعبني، لعلّه لا يُصغي، لا أدري. أقول إنني لا أتسبّب بشقاء أجد فيه لنفسي سؤالاً شخصياً. أحكي له كم كان من الصعب جداً أن آكل، وأن ألبس، وأن أعيش إجمالاً، من

راتب أمي. يشقّ عليّ الكلام أكثر فأكثر. يقول: كيف كنتم تفعلون؟ أقول له إننا كنا في الخارج، وأن البؤس كان قد هدم جدران العائلة وأننا وجدنا أنفسنا جميعاً خارج البيت، يفعل كلٌّ منا ما يريد. كنا متهتّكين. وعلى هذا النحو أنا معك هنا. إنه فوقي، ما زال يفترسني. بقينا هكذا، مسمَّرين، نتأوّه في صخب المدينة الذي لا يزال خارجياً. وما زلنا نسمعه، ثم لم نعد نسمعه.

القبلات على الجسد تبعث على البكاء. حتى ليقال إنهما يتآسيان. في العائلة أنا لا أبكي. هذا اليوم في هذه الغرفة تواسي الدموع الماضي والحاضر أيضاً. أقول له إنني سأنفصل عن أمي ذات يوم، وأنني سأكفّ عن حبّها ذات يوم. أبكي، يضع رأسه عليّ ويبكي لرؤيتي أبكي. أقول له إن شقاء أمي كان يحتلّ مكان الحلم في طفولتي. وإن الحلم كان أمي وليس أشجار الميلاد أبداً، كان الحلم هي وحدها على الدوام، أكانت الأم المسلوخة حيّة من البؤس أم كانت الأم التي في جميع حالاتها تتكلم في الصحراء، أم كانت الأم التي تبحث عن الغذاء، أم التي تحكي من دون انقطاع ما جرى لها، هي ماري لغران دي روبي، تتكلّم عن براءتها، وعن مدّخراتها، وعن أملها.

دخل المساء من خلال الدرفات، تضاعفت الضوضاء. غدت أكثر صخباً، وأقلّ صمماً، وأضيئت المصابيح الكهربائية المعلّقة ذات اللمبات المحمّرة.

خرجنا من الشقّة، ارتديت مجدداً القبّعة الرجالية ذات الشريط الأسود، وانتعلت الحذاء الذهبي، ووضعت أحمر الشفاه الداكن، ولبست الثوب الحريري، لقد شخت. عرفت ذلك في الحال. لاحظ ذلك، فقال: أنت متعبة.

على الرصيف كانت جموع من الناس تسير في كل الاتجاهات، بطيئة وسريعة، تشقّ لنفسها مسالك، جرباء مثل الكلاب المتروكة، عمياء مثل المتسوّلين، هذا جمهور من الصين، ما زلت أراه في صور الرخاء الحاليّ، في طريقة سيرهم معاً من دون نفاد صبر أبداً، ومن خلال وجودهم وسط الجموع وكأنهم وحيدون، بلا سعادة، قد يقال، ولا حزن، بلا فضول، سائرين من غير أن يبدو أنهم ذاهبون، من غير قصد لوجهة محدّدة، ولكنهم يتقدّمون دائماً هنا وليس هناك، وحيدين وفي وسط الحشد، ولكن ليسوا وحيدين بأنفسهم، أبداً، وهم على الدوام وحيدون وسط الحشد.

ذهبنا إلى واحد من تلك المطاعم الصينية المتعدّدة الطوابق التي تشغل مباني بكاملها وهي أشبه بمخازن كبرى، وثكنات، منفتحة على المدينة عبر شرفات ومصاطب. والضجة الصادرة عن تلك المباني لا يمكن تصوّرها في أوروبا، إنها ضجة الطلبات التي ينادي بها الخدم وتردّدها بالنداء ذاته المطابخ. لا أحد يتكلم في تلك المطاعم، وثمة جوقات صينية على الشرفات. ذهبنا إلى الطابق الأكثر هدوءاً، طابق الأوروبيين،

حيث الوجبات هي ذاتها لكن الصراخ أقل، وفيها مراوح وستائر تحول دون سماع الضجة.

أسأله أن يخبرني كيف أصبح والده غنياً، بأية طريقة. يقول إن الحديث عن المال يزعجه. ولكن إذا كنت مُصرّة فسوف يخبرني بما يعلم عن ثروة والده. بدأ كل شيء في شولن، حيث شيّد شققًا صغيرة مخصّصة للأهالي. بنى منها ثلاث مئة. وهو يمتلك عدة شوارع. كان يتكلم الفرنسية بلهجة باريسية مصطنعة قليلاً، ويتحدّث عن المال بمرح صادق. يقول إن الوالد كان يملك أبنية باعها ليشتري أراضي للبناء في جنوب شولن. يظن أن والده باع أيضاً حقول أرزّ في جنوب سادِك. أطرح عليه أسئلة عن الأوبئة. أقول إنني رأيت شوارع بكاملها من الشقق المحظورة، من المساء إلى الغد، أبوابها ونوافذها مُسمّرة بسبب وباء الطاعون. يقول لي إن الوباء أقلّ انتشاراً هنا، وإن عمليات إبادة الجرذان أكثر مما هي عليه في الأدغال، فجأة يحكي لي رواية عن الشقق الصغيرة. تكاليفها أرخص بكثير من تكاليف المساكن الفردية وتلبي على نحو أفضل بكثير متطلبات الأحياء الشعبية من المساكن المنفصلة. والسكان هنا يحبّون أن يكونوا معاً، ولا سيما هؤلاء السكان الفقراء، فهم يأتون من الريف ويحبّون العيش في الخارج، في الشارع. ولا ينبغي تحطيم عادات الفقراء. لقد أنهى والده للتوّ إقامة سلسلة كاملة من الشقق الصغيرة ذات الأروقة المغطاة التي تطل على الشارع. هذا يجعل

الشوارع منيرة جداً، وظريفة جداً. يمضي الناس نهاراتهم في هذه الأروقة الخارجية، كما أنهم ينامون فيها عندما يشتدّ القيظ. أقول إنني أنا أيضاً أحبّ أن أسكن في رواق خارجي، وأنني عندما كنت طفلة كان يبدو لي النوم في الخارج كمثال أعلى. فجأة أشعر بألم، لا يكاد يُحسّ، ألم خفيف جداً. إنه خفقان القلب المنتقل إلى غير موضعه هناك، في الجرح الحيّ والدامي الذي سبّبه لي، هو، الذي يكلّمني، هو الذي صنع متعة بعد الظهر. ما عدتُ أسمع ما يقول، ما عدت أصغي. يرى ذلك، يسكت، أقول له أن يتكلّم. يتكلّم. أصغي مجدداً، يقول إنه يفكّر كثيراً في باريس. يجد أنني مختلفة جداً عن الباريسيات، أنني أقلّ دماثةً منهنّ، أقول له إن تجارة الشقق الصغيرة هذه لا ينبغي أن تكون مربحة إلى هذا الحد. ما عاد يردّ عليّ.

طوال مدّة حكايتنا، خلال عام ونصف العام، سوف نتكلّم بهذه الطريقة، لن نتكلّم عنّا نحن. منذ الأيام الأولى عرفنا أن لا إمكانية لتصوّر مستقبل مشترك لنا، وعلى ذلك فلن نتكلم عن المستقبل أبداً، ولسوف نتبادل أحاديث مثل الصحافيين، وبمضمون مماثل.

أقول له إن إقامته في فرنسا كانت مشؤومة، يوافقني على ذلك، يقول إنه اشترى كل شيء في باريس، نساءه، معارفه، أفكاره. هو يكبرني باثني عشر عاماً وهذا يخيفه. أستمع إلى طريقته في التكلم، وفي خداع نفسه، وفي حبّه لي أيضاً، في نوع

من المسرحة المألوفة والصادقة في آن واحد.

أقول له إنني سأقدمه إلى عائلتي، فيريد الفرار وأضحك.

لا يستطيع التعبير عن مشاعره إلا من خلال المحاكاة الساخرة. أكتشف أن لا قدرة لديه على محبتي على الرغم من والده، لا قدرة لديه على أخذي، ولا على اصطحابي. كثيراً ما يبكي لأنه لا يجد القوة على محبتي في ما يتعدّى الخوف. بطولته هي أنا، وعبوديته مال والده.

عندما أتحدّث عن أخويّ يقع هو في ذلك الخوف، ويبدو كأنه انكشف. يعتقد أن كل من حولي من الناس ينتظرون أن يطلب الزواج مني. يعرف أنه ضائع في نظر عائلتي منذ الآن، وأنها ترى أنه لا يمكنه إلا أن يضيع أكثر وأن يضيعني أنا بالتالي.

يقول إنه ذهب إلى باريس لكي يلتحق بمدرسة تجارية، يقول الحقيقة أخيراً، وأنه لم يفعل شيئاً وأن والده قطع عنه أسباب العيش، وأرسل له تذكرة العودة، وكان مجبراً على مغادرة فرنسا. هذه العودة هي مأساته، لم ينه الدراسة في تلك المدرسة التجارية، يقول إنه يعتزم إنهاء دراسته هنا بواسطة دروس بالمراسلة.

بدأت اللقاءات مع العائلة بالمآدب الكبرى في شولن. عندما جاءت أُمّي وأخواي إلى سايغون قلت له يجب أن ندعوهم إلى

المطاعم الصينية الكبرى التي لا يعرفونها ولم يذهبوا إليها أبداً.

كانت تلك الأمسيات تنقضي كلها بالطريقة ذاتها. يلتهم أخواي الطعام التهاماً ولا يوجّهان إليه الكلام مطلقاً. حتى أنهما لا ينظران إليه. لا يستطيعان النظر إليه. لا يمكنهما أن يفعلا ذلك. لو كان بإمكانهما أن ينظرا إليه، أن يبذلا جهداً من أجل ذلك لكان بوسعهما أن يكملا الدراسة، وأن يلتزما بأبسط قواعد العيش في المجتمع. في أثناء تلك المآدب كانت أمي وحدها هي التي تتكلّم. تتكلّم قليلاً جداً، في الأوقات الأولى خصوصاً، تنطق ببعض الجمل حول الأطعمة التي تُقدَّم، وحول أسعارها الباهظة، ثم تصمت. أما هو فكان، في المرّتيّن الأوليين، يلقي بنفسه في اليمّ، يحاول التطرّق إلى أعماله الباهرة في باريس، لكن بلا جدوى. كما لو أنه لم يتكلّم، كما لو أن أحداً لم يُصْغِ إليه. تغرق محاولته في الصمت. يتابع أخواي التهام الطعام. يلتهمان الطعام التهاماً كما لم أرَ قط شخصاً يلتهم الطعام مثلهما في أي مكان.

يدفع المال، يعدّ النقود. يضعها في الصحن الصغير المخصص لذلك. ينظر إليه الجميع. في المرّة الأولى، على ما أذكر، دفع سبعة وسبعين قرشاً. وكانت أمي تنفجر في ضحك متواصل، ننهض لنغادر. لا أحد يشكره. لا يقولون أبداً شكراً على العشاء الجيّد، لا يقولون تصبح على خير ولا إلى اللقاء ولا كيف الحال، لا يقولون أي شيء مطلقاً.

أخواي لن يوجّها إليه الكلام أبداً. كما لو أنه ليس مرئيّاً في نظرهما، كما لو أنه لم يكن شيئاً كثيفاً بما يكفي لكي يكون مُدْرَكاً، ومنظوراً، ومسموعاً من قِبلهما. ذلك لأنه كان عند قدميّ، لأنه قرّر من حيث المبدأ أنني لا أحبه، وأنني أرافقه من أجل المال، وأنني لا أستطيع أن أحبّه. وأنّ هذا الحبّ مستحيل، وأن بإمكانه أن يتحمّل كل شيء مني من دون أن يفقد هذا الحب أبداً. ذلك، لأنه صيني، لأنه ليس أبيض. كانت طريقة هذا الأخ البكر في التزام الصمت وفي تجاهل وجود عاشقي تصدر عن اقتناع نموذجي. وكنا نحذو جميعاً حذو الأخ البكر في مواجهة هذا العاشق. حتى أنا كنت لا أكلّمه أمامهما. في حضور عائلتي كان ينبغي لي أن لا أوجّه إليه الكلام. إلا، نعم، عندما أنقل إليه رسالة من قِبَلهما. مثلاً، بعد العشاء، عندما يقول لي أخواي إنهما يريدان الذهاب إلى حانة لاسورس[1] لكي يشربا ويرقصا، كنت أنا مَن يقول له إنهما يريدان الذهاب إلى لاسورس لكي يشربا ويرقصا. في البدء كان يتظاهر بأنه لم يسمع. وكان عليّ أنا، وفقاً لمنطق أخي الأكبر، ألاّ أعيد ما قلته، ألاّ أكرّر طلبي، ولو فعلت لَعُدّ ذلك خطأ، فأنزل عند رغبته. في النهاية يردّ عليّ. يقول بصوت خافت، يريد أن يكون حميمياً، إنه يرغب في أن يكون معي وحده للحظات.

(١) La Source. اسم ملهى في سايغون (المترجم).

يقول ذلك لكي يضع حداً للعذاب. عندئذٍ كان عليّ ألاّ أصغي إليه جيداً، كما لو أن في الأمر خيانة إضافية كما لو أنه يريد بذلك أن يردّ الضربة، أن يدين سلوك أخي البكر تجاهه، وبالتالي لا ينبغي لي أن أردّ عليه دائماً. يواصل كلامه، ويقول لي، يجرؤ على أن يقول، أمّك مُتعبة، أنظري إليها. في الواقع تستغرق أمي في النوم بعد مآدب العشاء الخرافية التي يقدّمها صينيو شولن. لا أردّ أيضاً. عندئذٍ أسمع صوت أخي الأكبر، يقول جملة قصيرة جداً، لاذعة، حاسمة. كانت أمي تقول عنه: هو مَن يُحسن الكلام من بين الثلاثة. بعد أن يقول أخي جملته أنتظر. يتوقّف كلّ شيء؛ كنت أعرف خوف عاشقي، هو خوف أخي الصغير. ثم لا يعود يقاوم. نذهب إلى لاسورس. أمي تذهب إلى لاسورس هي أيضاً، تذهب لتنام في لاسورس.

في حضور أخي البكر يكفّ عن كونه عاشقي. لا يكفّ عن الوجود لكنه لا يعود شيئاً عندي، يصبح مكاناً محترقاً. رغبتي تذعن لأخي البكر، ترفض عاشقي. كلما أراهما معاً أعتقد أنني ما عدت أحتمل رؤيته. كان عاشقي مرفوض في جسده الضعيف بالذات، في ذلك الضعف الذي يحمل اللذة إليّ. أصبح أمام أخي فضيحة شائنة لا يمكن الاعتراف بها، بات سبباً للشعور بالعار الذي يجب إخفاؤه. لا أستطيع مقاومة هذه الأوامر الخرساء الصادرة عن أخي. يمكنني المقاومة إذا ما تعلّق الأمر بأخي الصغير. أما عندما يتعلّق الأمر بعاشقي فلا يمكنني القيام

بأي شيء ضد نفسي. وكلامي عنه الآن يجعلني أستعيد رؤية نفاق الوجه، نفاق شخص شارد الذهن ينظر إلى مكان آخر، شخص لديه شيء آخر يفكر فيه، غير أنه ساخط، كما يبدو من فكيّه المصطكّين قليلاً، ويعاني لكونه مضطراً إلى تحمّل هذا الشيء، هذه الإهانة، لكي يأكل جيداً ليس إلاّ، في مطعم أسعاره باهظة، الأمر الذي كان يفترض أنه طبيعي جداً. حول ذكرى النور الشاحب لليل الصياد يُسمع صوت إنذار ثاقب، صوت صراخ طفل.

في لاسورس لم يتحدّث أحد معه أيضاً. طلبنا جميعنا شامبانيا مارتل بيرييه[1]. شرب أخواي كأسيهما على الفور وطلبا كأسين أُخريين، أعطيناهما، أمي وأنا، كأسينا. وسرعان ما سكر أخواي سكراً شديداً، ومع ذلك ما زالا لا يكلّمانه أبداً، لكنهما شرعا في المهاترة. ولا سيّما الأخ الصغير. أخذ يشكو من أن المكان كئيب ولا يوجد فيه غانيات. عادة ما يكون عدد الناس قليلاً جداً في لاسورس في بحر الأسبوع. رقصت معه، مع أخي الصغير. رقصت مع عاشقي أيضاً. أنا لا أرقص أبداً مع أخي البكر، لم أرقص معه أبداً. ينتابني على الدوام توجّس مقلق من خطر داهم، خطر هذه الجاذبية المؤذية التي يمارسها على الجميع، خطر تقارب جسدينا.

---

(١) Martel Perrier شامبانيا فرنسية مشهورة (المترجم).

نحن متشابهون جداً على نحو مدهش، خصوصاً في الوجوه.

كلّمني صينيٌّ شولن، وكان على وشك أن يبكي، قال: ماذا فعلت لهما. قلت له: أن لا داعي للقلق، وأن هذه هي الحال دائماً، حتى في ما بيننا، في ظروف الحياة كافة.

سوف أوضح له الأمر عندما نلتقي في الشقّة الصغيرة. قلت له إن عنف أخي البكر، البارد، المُهين، يواكب كل ما يحدث لنا، كل ما يأتي علينا. حركتُه الأولى هو أن يَقتل، أن يمحو من الحياة، أن يتصرّف في الحياة، أن يحتقر، أن يقتنص، أن يُعذِّب. قلت له أن لا يخاف، وأن لا بأس عليه، هو. لأن الشخص الوحيد الذي يخشاه الأخ البكر، والذي يرتعب أمامه بشكل غريب، هو أنا.

لا صباح الخير أبداً، لا مساء الخير، لا كل عام وأنت بخير. أبداً لا شكر. الكل يبقى أخرس، بعيداً. هذه عائلة من حجر، متحجّرة في كثافة من دون أي منفذ، في كل يوم نحاول أن نَقتل أنفسنا، أن نَقتل. لا يكلّم بعضُنا بعضاً فحسب بل إننا لا نتبادل النظر. ما إن تُتاح الرؤية حتى يمتنع النظر. أن تنظر هو أن تأتي بحركة فضولية نحو، تجاه، هو أن تنحطّ. ما من شخص منظور يساوي النظرة التي تُلقى عليه. النظر مُخزٍ دائماً. وكلمة حديث مبعدة. أعتقد أن هذه الكلمة هي التي تعبّر أحسن تعبير عن العار والكبرياء. كلّ جماعة، أكانت عائلية أم غير عائلية،

مكروهة عندنا، منحطة. نحن معاً في عار مبدئي لأننا نعيش الحياة. نحن هنا في قَعْرِ تاريخنا المشترك، تاريخ كوننا نحن الثلاثة أبناء هذه الإنسانة الحسنة النيّة، أُمّنا، التي اغتالها المجتمع. ونحن في جانب هذا المجتمع الذي أوقع أمّي في اليأس. وبسبب ما حَلّ بأمنا المحبوبة جداً، والواثقة جداً، بتنا نكره الحياة، وبكره بعضنا بعضاً.

لم تتوقع أمنا ما كنا قد أصبحنا عليه انطلاقاً من مشهد يأسها، وأنا أتكلم بوجه خاص عن الأبناء. لكن، لو أنها توقعت ذلك، كيف كان بإمكانها أن تُسكِت ما كان قد أصبح تاريخها الخاص؟ كيف كان بإمكانها أن تكذّب وجهها، نظرتها، صوتها؟ حبّها؟ كان يمكن أن تموت. أن تنتحر. أن تشتّت العائلة غير القابلة للحياة. أن تعمل على أن يصبح البكر منفصلاً تماماً عن الصغيرين. لم تفعل ذلك. كانت متهوّرة، كانت متناقضة، غير مسؤولة. كانت كل ذلك. لقد عاشت. أحببناها نحن الثلاثة في ما يتعدّى الحب. ربما بسبب ذلك بالذات لم تتمكن من، لم يكن بإمكانها أن تَسْكُت، أن تخفي، أن تكذب، وعلى الرغم من كوننا مختلفين جداً نحن الثلاثة فقد أحببناها بالطريقة نفسها.

استمرّ هذا الوضع مدة طويلة. استمرّ سبع سنوات. بدأ هذا عندما كنا في سنّ العاشرة. ثم بلغنا من العمر اثنتي عشرة سنة. ثم ثلاث عشرة سنة. ثم أربع عشرة سنة، خمس عشرة سنة. ثم ست عشرة سنة، سبع عشرة سنة.

استمرّ هذا الأمر طوال ذلك العمر، سبع سنوات. ثم كان العدول عن الأمل أخيراً. جرى التخلي عنه كما جرى التخلي عن المحاولات ضد المحيط. كنا ننظر في ظل الشرفة إلى جبل سيام، الداكن جداً والشمس في كبد السماء، أسود تقريباً. وأخيراً هي ذي الأم هادئة، ناضجة، نحن أولاد بطوليون، يائسون.

مات الأخ الصغير في كانون الأول ١٩٤٢ تحت الاحتلال الياباني. كنت قد غادرت سايغون بعد حصولي على شهادة البكالوريا ـ القسم الثاني. لقد كتب إليّ مرّة واحدة في غضون عشسر سنوات.

من دون أن أعرف لماذا كتب. كانت الرسالة سطحية، مبيّضة، مكتوبة بخط مُتقن، كان يقول لي إنهم بخير، وإن المدرسة كانت على ما يرام. كانت رسالة طويلة في صفحتين ممتلئتين. عرفت خطه الطفلي. كان يقول لي أيضاً أنه امتلك شقة، وسيارة، ذكر طرازها. وكان يقول إنه استأنف رياضة كرة المضرب. وإنه كان بخير، وأن كل شيء كان بخير. وإنه يعانقني عناقاً حاراً كما كان يحبّني. لم يتكلم عن الحرب ولا عن أخينا البكر.

غالباً ما أتحدّث عن أخوي كما أتحدّث عن جماعة، كما كانت تفعل هي، أُمّنا. أقول: أخواي، وهي أيضاً كانت تقول

خارج العائلة: أبنائي. تحدّثتْ دائماً عن قوة أبنائها بطريقة مُهينة. في الخارج، لم تكن تدخل في التفاصيل، لم تكن تقول إن الابن البكر كان أقوى بكثير من الابن الثاني، كانت تقول إنه كان قوياً مثل إخوته، فلاّحي الشمال. كانت فخورة بقوّة ابنيها، مثلما كانت فخورة بقوّة إخوتها. وكانت، مثل ابنها البكر تحتقر الضعفاء. وكانت تقول عن عاشقي من شولن ما كان يقوله الأخ البكر. لا أكتب هذه الكلمات. فقد كانت كلمات أشبه بالجيف التي يُعثر عليها في الصحارى. أقول: أخواي، لأن هذا ما كنت أقوله أنا أيضاً. في ما بعد تحدّثت بطريقة مختلفة، عندما كبر الأخ الصغير وأصبح شهيداً.

لم يتم الاحتفال بأي عيد في عائلتنا، لا شجرة ميلاد، ولا أي منديل مطرّز، ولا أية زهرة أبداً. ولكن لا ميت أيضاً، ولا أي لحْد، ولا أية ذكرى. كانت هي وحدها. سيبقى الأخ البكر قاتلاً، وسيموت الأخ الصغير ضحية هذا الأخ. وكنت أنا قد ذهبت، انتزعت نفسي. وإلى أن لاقى الأخ البكر حتفه ظل محتفظاً بها لنفسه وحده.

في تلك المرحلة، كانت أمي تصاب بنوبة جنون، من شولن، من الصورة، من العاشق. إنها لا تعرف شيئاً عمّا حدث في شولن. غير أنني كنت أرى أنها تراقبني، أنها ترتاب في شيء ما. كانت تعرف ابنتها، منذ بعض الوقت، ابنتها، تلك الطفلة، منذ بعض الوقت كان يحوم حول هذه الطفلة جوّ من الغرابة، من

التحفظ، كما يقال، حديث، يسترعي الانتباه، كلامها أبطأ من المعتاد، وهي على الرغم من كونها الأكثر فضولية من الجميع تبدو شاردة الذهن، وقد تغيّرت نظرتها، وأصبحت متفرّجة على أمها بالذات، على شقاء أُمّها، حتى ليقال إنها تشهد حدوث هذا الشقاء. تشهد حلول الرعب المفاجىء في حياة أمي. إن ابنتها عُرضة للخطر الأكبر، خطر ألاّ تتزوّج أبداً، ألاّ تستقرّ في المجتمع أبداً، خطر أن تغدو مجرّدة أمام هذا المجتمع، ضائعة، متوحّدة. في ما كانت تمرّ به من أزمات، كانت أُمّي ترتمي عليّ، تحبسني في الغرفة، تنهال عليّ ضرباً بقبضتها، تصفعني، تجرّدني من ثيابي، تقترب مني، تشمّ جسدي، تشمّ ملابسي الداخلية، تقول إنها تجد عِطر الرجل الصيني، تذهب إلى أبعد من ذلك، تنظر إن كانت على ملابستي الداخلية لطخات مشبوهة وتُعْوِل، حتى لتسمعها المدينة، قائلة إن ابنتها عاهرة، وأنها ستلقي بها خارجاً، وأنها تودّ أن تراها ميتة وأن لا يعود أحد يرغب فيها، وأنها مسربلة بالعار، الكلبة أفضل منها، وتروح تبكي متسائلة ماذا يمكنها أن تفعل بهذا، سوى أن تخرجها من المنزل حتى لا تعود تفسد المكان برائحتها الكريهة.

كان الأخ خلف جدران الغرفة المغلقة. يردّ الأخ على الأُمّ، يقول لها إنها مُحقّة، في ضرب الطفلة، صوته خامد، حميمي، مداعب، يقول لها أن لا بدّ لهما أن يعرفا الحقيقة مهما كان الثمن، لا بد لهما أن يعرفا ليحولا دون ضياع هذه البنت

الصغيرة، لكي يحولا دون أن تيأس الأم منها. تضرب الأم بكل ما أُوتيت من قوّة. يصرخ الأخ الصغير في الأم أن تتركها وشأنها. يذهب إلى الحديقة، يختبىء، يخاف من أن أُقتل، يخاف، يخاف دائماً من هذا المجهول، أخينا البكر. يهدّىء خوفُ الأخ الصغير الأمَّ. تبكي على حياتها المنكوبة، تبكي على طفلتها الملطخة بالعار. أبكي معها. أكذب. أُقسم بحياتي أنه لم يحدث لي شيء، لا شيء ولا حتى قبلة. كيف تريدين، أقول، مع صيني، كيف تريدين أن أفعل ذلك مع صيني، قبيح جداً، هزيل جداً؟ أعلم أن الأخ البكر متسمّر وراء الباب، يصغي، ويعرف ما تفعل أُمّي، يعرف أن الصغيرة عارية، ومضروبة، ولعله يرغب في أن يستمر ذلك أيضاً وأيضاً حتى الخطر. لا تجهل أمي غاية أخي البكر، المبهمة، المرعبة.

كنا لا نزال صغاراً جداً. وكانت تنشب بانتظام معارك بين أخويّ، من دون سبب ظاهر، سوى السبب التقليدي لدى الأخ البكر، الذي يقول للصغير: اخرجْ من هنا، إنك تزعجني. وما إن يقول ذلك حتى يضرب، ويشرعان في التعارك من دون أن ينبسا بكلمة، ولا يُسمع سوى لُهاثهما، وشكواهما، وضجة الضربات المخنوقة. وكما في كل مناسبة تواكب أمي المشهد بمغناة من الصراخ.

لقد وُهِبا كلاهما ملكة الغضب نفسها، واحدة من تلك الغضبات السوداء، المميتة، التي لم تُر أبداً إلا لدى الإخوة،

والأخوات، والأُمّهات. يشكو الأخ البكر من عدم ممارسته الأذية بحرية، من عدم تحكّمه في الأذية، ليس هنا فقط وإنما في كل مكان آخر. ويشكو الأخ الصغير من وقوفه عاجزاً أمام هذا الرعب، وأمام هذا الاستعداد لدى أخيه الكبير.

عندما كانا يتعاركان كنا نشعر بالخوف ذاته من موت كل منهما على قدم المساواة. كانت الأم تقول إنهما كانا يتعاركان دائماً، وإنهما لم يلعبا معاً أبداً، ولم يتبادلا الحديث قط وإن الشيء الوحيد الذي كان مشتركاً بينهما هو أمهما وهذه الأخت الصغيرة بوجه خاص، ولا شيء آخر سوى الدم.

أعتقد أن أمي كانت تقول عن الابن البكر وحده: ولدي. وكانت تناديه أحياناً بهذه الطريقة، أما عن الاثنين الآخرين فكانت تقول: الصغيران.

لم نقل شيئاً عن كل هذا في الخارج، وكنا قد تعلّمنا أولاً أن نسكت عن الشيء الأساسي في حياتنا، عن البؤس. ثم عن كل الباقي أيضاً. وكان أول أصدقائنا الحميمين، على ما في الكلمة من مبالغة، هم عشاقنا، ولقاءاتنا خارج المراكز، في شوارع سايغون أولاً ثم في السفن العاملة على خطوط المواصلات، وفي القطارات، ثم في كل مكان.

كانت أمي توعز، فجأة، حوالي العصر، ولا سيّما في موسم الجفاف، بغسل البيت كله عاليه وسافله، للتنظيف، أو للتطهير

كما تقول، وللتبريد. كان البيت مبنياً على أرض مركومة مرتفعة تعزله عن الحديقة، وعن الأفاعي، والعقارب، والنمل الأحمر، وعن فيضانات الميكونغ، والفيضانات التي تعقب الأعاصير الكبرى الموسمية. كان ارتفاع البيت عن مستوى التربة يُتيح شطفه بسطول ماء كبيرة، وغسله كله مثل حديقة. الكراسي توضع كلها على الطاولات، والمنزل كله يجري، وأرجل بيانو الصالون الصغير في الماء، والماء ينزل من أدراج المدخل، ويجتاح البهو نحو المطابخ. كان الخدم الصغار مبتهجين جداً، وكنا جميعاً مع الخدم الصغار، نتراشّ بالماء، ثم نغسل الأرض بصابون مرسيليا. كان الجميع عُراة الأقدام بمن فيهم الأم. تضحك الأم. والبيت يتضوّع، يفوح بالرائحة الزكية للأرض المبلّلة بعد العاصفة، وهذه الرائحة تبعث المرء على الجنون خصوصاً عندما تكون ممزوجة بالرائحة الأخرى، رائحة صابون مرسيليا، رائحة الطهارة، رائحة النزاهة، رائحة الغسيل، رائحة البياضات، رائحة أمنا، رائحة طيبة أمنا التي لا حدّ لها. الماء ينحدر حتى الممرات. تأتي عائلات الخدم، وزوّار الخدم أيضاً، ويأتي الألاود البيض من المنازل المجاورة. الأم سعيدة جداً بهذه الفوضى، بإمكان الأم أن تكون سعيدة جداً جداً في بعض الأحيان، في زمن النسيان، ويمكن لزمن غسل البيت أن يكون ملائماً لسعادة الأم. تذهب الأم إلى الصالون، تجلس إلى

البيانو، تعزف الألحان الوحيدة التي تعلمتها في دار المعلِّمين، تغني، تلعب أحياناً، تضحك، تنهض وتشرع في الرقص وهي تغني، وكل منّا يفكّر، والأم أيضاً تفكّر، أننا يمكن أن نكون سعداء في هذا البيت المشوّه الذي يصبح فجأة مستنقعاً، حقلاً على ضفّة نهر، معبراً، شاطئًا.

الولدان الصغيران، البنت الصغيرة والأخ الصغير، هما اللذان يتذكران أولاً. يكفّان عن الضحك فجأة ويذهبان إلى الحديقة حيث حلّ المساء.

أذكر، وأنا أكتب في هذه اللحظة، أن أخانا البكر لم يكن في فنهلونغ[١] عندما كنا نغسل البيت بمياه كثيرة. كان عند الوصيّ علينا، وهو كاهن قرية، في لو - إي - غارونّ[٢].

يحدث أن يضحك هو أيضاً في بعض الأحيان لكن ليس مثل ضحكنا أبداً، أنسى كل شيء، أنسى أن أقول هذا، أننا كنا ولدين ضاحكين، أخي الصغير وأنا، ضاحكين حتى ينقطع النفس، ضاحكين مدى الحياة.

أرى الحرب بألوان طفولتي نفسها، أخلط زمن الحرب مع سيطرة أخي البكر. ولا ريب في أن هذا أيضاً يعود إلى أن

---

(١) Vinhlong. منطقة في فيتنام (المترجم).

(٢) Lot-et- Garonne. محافظة في جنوب غرب فرنسا (المترجم).

أخي الصغير مات في أثناء الحرب: القلب، كما قلت من قبل، الذي كان قد استسلم، قد تخلّى. الأخ البكر، أذكر جيداً أنني لم أره مطلقاً في أثناء الحرب، آنذاك لم يعد يهمني أن أعلم ما إذا كان حياً أو ميتاً. أرى الحرب كما كان هو، تنتشر في كل مكان، تتوغل في كل مكان، تسرق، تسجن، تكون في كل مكان، مختلطة بكل شيء، ممتزجة، حاضرة في الجسد، في الفكر، في اليقظة، في النوم، في الزمن، نهباً للشغف المسكِر باحتلال الأراضي المعبودة لجسد الطفلة، لجسد مَن هم أقلّ قوة، لشعوب مغلوبة، ذلك لأن الشرّ هنا، عند الأبواب، على الجلد.

نعود إلى الشقّة الصغيرة. نحن عاشقان. لا نستطيع التوقف عن الحب.

أحياناً لا أعود إلى السكن الداخلي، أنام بالقرب منه، لا أريد أن أنام بين ذراعيه، في حرارته، لكنني أنام في الغرفة ذاتها، وفي السرير ذاته. في بعض الأحيان أتغيّب عن المدرسة. نذهب لتناول الطعام في المدينة ليلاً. يحمّمني، يغسلني، يشطفني بالماء، يعبدني، يجمّلني، يُلبّسني، يعبدني. أنا المفضّلة في حياته. يحيا في هلع من أن أقابل رجلاً آخر. لم أشعر أنا بخوف مماثل أبداً. كان يراوده خوف آخر أيضاً، لا لأنني بيضاء، بل لأنني صغيرة جداً، صغيرة جداً بحيث يمكن أن يُقاد

إلى السجن إذا ما انكشفت قصتنا. قال لي أن أستمر في الكذب على أمي، وبخاصة على أخي البكر، وألاّ أقول شيئاً لأحد. واصلتُ الكذب. وكنت أضحك من خوفه. قلتُ له إننا فقراء جداً بحيث لا تستطيع أمي أن تقيم دعوى، إضافة إلى أنها خسرت كل الدعاوى التي كانت قد أقامتها، الدعاوى ضد السجّل العقاري، وضد المديرين، وضد المحافظين، وضد القانون، لا تعرف كيف تقيمها، ولا أن تحافظ على هدوئها، وتضيّع فُرصها. وهذه الدعوى ستكون مماثلة للدعاوى السابقة. فلا داعي للخوف.

ماري ـ كلود كاربنتر. كانت أميركية. كانت، على ما أذكر، من بوسطن. كانت عيناها صافيتين جداً، رماديتين ـ زرقاوين. عام ١٩٤٣. كانت ماري ـ كلود كاربنتر شقراء. تكاد تكون ذابلة. جميلة بالأحرى كما أعتقد. مع ابتسامة مختصرة سرعان ما تنقبض وتختفي بومضة. مع صوت يعود إلى ذاكرتي فجأة. صوت خفيض، نشاز بنبراته الجادّة. كانت في الخامسة والأربعين، العمر بالفعل، العمر نفسه. كانت تسكن في الدائرة السادسة عشرة، على مقربة من ألما[١]. كانت الشقة تشغل كامل الطبقة الأخيرة من مبنى يطلّ على السين[٢]. كنا نذهب لتناول

---

(١) L'Alma. ساحة وجسر على نهر السين في باريس (المترجم).

(٢) La Seine.

طعام العشاء عندها في الشتاء، أو الغداء في الصيف. طعام المأدبة كان يُطلَبُ من أفضل طهاة باريس. كانت الوجبات لائقة على الدوام، تقريباً، لكن تكاد تكون غير كافية. لم نرها قطّ إلاّ في منزلها، وليس في الخارج أبداً. في بعض الأحيان كان يوجد هناك شاعر مالارميّ[1]. وغالباً ما يكون هناك أيضاً أديبان أو ثلاثة كانوا يأتون مرّة ثم لا نعود نراهم مرّة أخرى. لم أعلم أبداً أين كانت تجدهم، ولا أين تعرّفت إليهم، ولا لماذا تدعوهم. لم أسمع أبداً كلاماً عن أي منهم، ولم أقرأ أياً من مؤلفاتهم ولا سمعت أحداً يتكلّم عنها. كانت المأدبة تأخذ وقتاً قليلاً. وكانوا يتكلمون كثيراً عن الحرب، كانت حرب ستالينغراد، وكان ذلك أواخر شتاء ١٩٤٢. كانت ماري ـ كلود كاربنتر تصغي كثيراً، وتستعلم كثيراً، وتتكلّم قليلاً، وغالباً ما كانت تبدي دهشتها لأنها تجهل كثيراً من الأحداث، وكانت تضحك. في نهاية المآدب كانت تبادر إلى الاعتذار لاضطرارها إلى المغادرة بهذه السرعة لأن عليها أن تقوم بعمل ما. لم تقل أبداً ما هو هذا العمل. عندما يكون عددنا كافياً كنا نمكث ساعة أو ساعتين بعد رحيلها. كانت تقول لنا: أبقوا بقدر ما تريدون. وفي غيابها لا أحد كان يتكلم عنها. فضلاً عن ذلك، أعتقد أن لا أحد كان

---

(١) Mallarméen. نسبة إلى الشاعر الفرنسي ستيفان مالارميه Stéphane Mallarmé. من روّاد المدرسة الرمزية في القرن ١٩ (المترجم).

يعرفها. كنا نغادر، ونعود إلى بيوتنا يراودنا دائماً هذا الشعور بأننا مررنا بنوع من الكابوس الأبيض، وأننا نعود بعد أن أمضينا بضع ساعات عند مجهولين، في حضور مدعويين كانوا في الحالة نفسها ومجهولين مثلنا، وأننا عشنا لحظة من دون مستقبل، ومن دون أي دافع إنساني ولا غير إنساني. كان ذلك كما لو أننا اجتزنا حدوداً ثالثة، كأننا قمنا برحلة في قطار، وانتظرنا في قاعات انتظار أطباء، وفي فنادق، وفي مطارات. في الصيف كنا نتناول طعام الغداء على سطيحة واسعة تطل على السين ونتناول القهوة في الحديقة التي تشغل كامل سطح المبنى. كان هناك مسبح. ولا أحد يسبح. كنا ننظر إلى باريس، إلى الجادات المقفرة، إلى النهر، إلى الشوارع. في الشوارع الخالية كانت أشجار الكاتالبا[١] مزهرة. ماري ـ كلود كاربنتر. كنت أنظر إليها كثيراً، في كل حين تقريباً، وكانت تنزعج من ذلك، لكنني كنت لا أستطيع الامتناع عن النظر إليها. كنت أنظر إليها لكي أعرف مَن هي، ماري ـ كلود كاربنتر. لماذا كانت هناك وليس في مكان آخر، لماذا كانت من مكان بعيد جداً، من بوسطن، لماذا كانت غنية، لماذا لا نعرف عنها شيئاً إلى هذا الحدّ، لا أحد، لا شيء، لماذا هذه الاستقبالات التي تبدو وكأنها إجبارية، لماذا، لماذا كانت في عينيها، في غوريهما، في عمق البصر، جُزَيئة

(١) Les catalpas.

الموت هذه، لماذا؟ ماري ـ كلود كاربنتر. لماذا كانت كل أثوابها تشترك في شيء ما لا أدري ما هو، شيء يوحي بأنها لم تكن أثوابها تماماً، وأنها كانت تغطي أيضاً جسداً آخر. أثواب محايدة، صارمة شفّافة، بيضاء كالصيف في قلب الشتاء.

بتي فرنانديز[1]. ذكرى الرجال لا تحصل أبداً في هذه الإضاءة الساطعة التي تواكب ذكرى النساء. بتي فرنانديز. أجنبية هي أيضاً. ما إن يُذكر اسمها حتى تكون حاضرة، تسير في أحد شوارع باريس، قصيرة النظر، ترى قليلاً جداً. تُغمض عينيها نصفَ إغماضة لكي تميّز الشيء تماماً، تحييكم بيد خفيفة. نهاركم سعيد، أنتم بخير؟ ماتت منذ زمن بعيد. منذ ثلاثين عاماً ربّما. أتذكر النعمةَ، وإن مضى زمن طويل لأكون قد نسيتها، لا شيء يبلغ مبلغ ما لها من كمال، ولن يبلغ شيء مبلغها من الكمال، لا الظروف ولا المرحلة، لا البرد ولا الجوع، لا الهزيمة الألمانية ولا تسليط الضوء بالكامل على الجريمة. تعبر الشارع دائماً فوق تاريخ هذه الأشياء مهما تكن رهيبة. هنا أيضاً العينان صافيتان. والثوب الوردي قديم، والقبعة السوداء العريضة الحوافّ مُغبّرة في شمس الشارع. إنها رقيقة، عالية، مرسومة بالحبر الصيني، تحفة محفورة. يتوقف الناس وينظرون مبهورين إلى أناقة هذه الأجنبية التي تمرّ من دون أن تَرى. ملكة. لا

---

(١) Betty Fernandez.

يُعرف على الفور من أين تأتي. ثم نقول في أنفسنا إنها لا يمكن أن تأتي إلاّ من مكان آخر، إلاّ من هناك. إنها جميلة، جميلة بهذا التأثير. ترتدي ثياباً بالية من أوروبا، بقايا من نسيج مقصّب، وفساتين قديمة لم تعد دارجة، ومن ستائر قديمة، ونقود قديمة، وأسمال لمشاهير الخياطين، وفراء ثعالب قديمة أكلها العِث، ومعاطف من وبر ثعالب الماء، على هذه الشاكلة كان جمالها ممزّقاً، مقروراً، منتحباً، منفياً، لا شيء يلائمها، كل شيء كبير عليها، وكان هذا جميلاً، فهي تطفو، نحيفة جداً، لا تتماسك بشيء، ومع ذلك فهذا شيء جميل. هكذا خُلقت، في الرأس والجسد، بحيث أن كل شيء يمسّها يساهم فوراً وعلى نحو ثابت في هذا الجمال.

كانت بتي فرنانديز تستقبل، وكان لها «يوم». وكنا نذهب إليها في ذلك اليوم أحياناً. ذات مرّة كان هناك دريو لا روشل[1]، وكان يعاني من داء الكبرياء بوضوح، يتكلم قليلاً لئلا يتواضع، بصوت مزدوج، وبلغة كأنها مترجمة، متوعّكة. ربما كان هناك أيضاً برازيلاك[2] غير أنني لا أتذكر، وأنا شديدة الأسف لذلك. لم يكن سارتر[3] هناك أبداً، كان هناك شعراء مونبارناس لكنني ما عدت أذكر أي اسم، ولا أي شيء. لم يكن

---

(١) Pierre Drieu la Rochelle. كاتب فرنسي (١٨٩٣ ـ ١٩٤٥م) (المترجم).
(٢) Robert Brasillach. كاتب فرنسي (١٩٠٩ ـ ١٩٤٥م) (المترجم).
(٣) Jean-Paul-Sartres ـ فيلسوف وجودي وكاتب فرنسي (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠م) (المترجم).

هناك ألمان. ولم نكن نتكلم عن السياسة. كنا نتكلم عن الأدب. كان رامون فرنانديز[1] يتكلّم عن بلزاك[2] وربما كنا نصغي إليه حتى آخر الليل. كان يتكلم، كمعرفة تكاد تكون منسية كلياً. كان يعطي قليلاً من المعلومات وكثيراً من الآراء. كان يتكلم عن بلزاك كما لو أنه يتكلم عن نفسه، كما لو أنه حاول ذات مرّة أن يكون هو أيضاً ذلك الشيء، بلزاك، كان رامون فرنانديز على قدر عالٍ من التهذيب حتى في مجال المعرفة، وكانت لديه طريقة جوهرية وشفافّة في آنٍ للانتفاع من المعرفة من دون أن يُشعر الآخرين بمِنَّة أو ثقل. كان رجلاً صادقاً. وكان الالتقاء به في الشارع، أو في المقهى، عيداً على الدوام، وكان سعيداً بأن يراكم، وكان ذلك حقيقياً، وكان ليحييكم بسرور. صباح الخير، هل أنتم بخير؟ يقول ذلك بالإنكليزية، من دون فاصلة، ضاحكاً، وفي أثناء هذا الضحك تصبح الدعابة هي الحرب بعينها، وكذلك كل عذاب يترتب عليها، عذاب المقاومة كما عذاب العمالة، عذاب الجوع كما عذاب البرد، عذاب الشهادة كما عذاب الخزي. أما هي، بتي فرنانديز، فكانت لا تتكلم إلا عن هؤلاء الذين كانت تراهم في الشارع أو الذين تعرفهم، عن أحوالهم، عن الأشياء التي لا تزال معروضة للبيع

---

(١) Ramon Fermandez. كاتب وصحافي فرنسي أصله من المكسيك (١٨٩٤ ـ ١٩٤٤م) (المترجم).

(٢) Honoré de Balzac. روائي فرنسي (١٧٩٩ ـ ١٨٥٠م) (المترجم).

في الواجهات، وعن توزيع الكميات الإضافية من الحليب، ومن السمك، عن الحلول الملطفة للنواقص، للبرد، للجوع الدائم، وكانت تنهمك دائماً في التفاصيل العملية للوجود. كانت تقف هناك، متّسمة بالصداقة دائماً، مخلصة جداً وحنونة جداً. متعاملان، آل فرنانديز. وأنا، بعد سنتين على انتهاء الحرب، أصبحت عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي. المعادلة مطلقة، حاسمة. هذا هو الشيء نفسه، الشفقة نفسها، طلب النجدة نفسه، وضعف الحكم نفسه، ولنقل الخرافة نفسها، التي تتمثل في الاعتقاد بالحل السياسي للمشكلة الشخصية. هي أيضاً، بتي فرنانديز، كانت تنظر إلى الشوارع الخالية نتيجة الاحتلال الألماني، كانت تنظر إلى باريس، إلى الحدائق الصغيرة المزروعة بأشجار الكاتلبا المزهرة. ومثلما كانت تفعل تلك المرأة الأخرى، ماري ـ كلود كاربنتر، كانت لها هي أيضاً أيامها المخصّصة للاستقبال.

يرافقها إلى المنامة الداخلية في الليموزين السوداء. يتوقف قليلاً قبل المدخل لئلا يراه أحد. لقد حلّ الليل. تنزل، تركض، لا تلتفت نحوه. وما إن تعبر البوّابة حتى ترى أن الملعب لا يزال مضاء. وحالما تخرج من الممر تراها، هي، التي تنتظرها، قلقة، منتصبة، متجهمة، تسألها: أين كنتِ؟ تقول: لم أرجع لكي أنام. لا تقول لماذا، وهيلين لاغونل لا تسألها عن ذلك. تخلع القبّعة الوردية وترتب أغطيتها من أجل الليل. لم تذهبي إلى

المدرسة. لم أذهب. تقول هيلين إنهم تلفنوا، وهكذا علمت بالأمر، وأن عليها أن تذهب لرؤية الناظرة العامة. في ظل الملعب فتيات كثيرات. جميعهن بملابس بيض. وعلى الأشجار مصابيح كهربائية كبيرة. وبعض قاعات الدرس لا تزال مضاءة. ولا تزال بعض التلميذات يدرسن، وأخريات بقين في الصفوف لكي يثرثرن، أو يلعبن الورق، أو يغنين، لا وقت محدّد لنوم التلميذات، ونظراً إلى شدّة الحر في النهار يمضين المساء كما يشأن، كما تشاء الناظرات الشابات. نحن البيضاوات الوحيدات في منامة الدولة. وهناك الكثير من المولّدات، وغالبيتهن تخلّى عنهن الأب، الجندي أو البحّار أو الموظف الصغير في الجمارك، أو البريد، أو الأشغال العامة. ومعظمهن يأتين من دائرة المساعدة العامة. هناك بعض الخُلاسيات أيضاً. ما تعتقده هيلين لاغونل هو أن الحكومة الفرنسية تربيهن لتجعل منهن ممرضات في المستشفيات أو ناظرات في دور الأيتام، وفي مصحّات المصابين بالبرص، وفي مستشفيات الأمراض العقلية. وتعتقد هيلين لاغونل أنهم يُرسَلْن أيضاً إلى المحاجر الصحية للمصابين بالكوليرا والمصابين بالطاعون. هذا ما تعتقده هيلين لاغونل وتبكي لأنها لا تريد أياً من تلك الوظائف، وتتحدث دائماً عن الفرار من المدرسة الداخلية.

ذهبت لمقابلة ناظرة المسكن، وهي أيضاً امرأة شابة خلاسية

تراقبنا كثيراً هيلين وأنا، تقول[1]:

«لم تذهبوا إلى المدرسة ولم تناموا هنا هذه الليلة، سنكون مضطرين لإبلاغ أمكم». أقول لها لم يكن بإمكاني أن أفعل غير ذلك لكن ابتداءً من هذا المساء، من الآن فصاعداً، سأحاول أن أعود كل مساء لأنام في المنامة، ولا داعي لإبلاغ أُمّي. تنظر إليّ الناظرة الشابة وتبتسم لي.

سوف أبدأ من جديد، وسيتم إبلاغ أُمي. وستأتي لمقابلة مديرة المنامة وستطلب منها أن تدعني حرّة في المساء، وألاّ تراقب الساعات التي أعود فيها، وألاّ تجبرني على الذهاب في نزهة يوم الأحد مع تلميذات المدرسة الداخلية. قالت: «هذه طفلة كانت حرّة على الدوام، وإلاّ لكانت قد هربت، أنا أيضاً أُمُّها لا أستطيع شيئاً ضد هذا الأمر، إن أردت الاحتفاظ بها عليّ أن أدعها حرّةً. قبلت المديرة لأنني بيضاء، ولأن سُمعة المدرسة الداخلية تتطلّب وجود بعض البيضاوات وسط حشد من الخلاسيات. قالت أمي أيضاً إنني أجتهد جيداً في المدرسة إذا ما كنت حُرّة أيضاً، وإن ما حدث لها مع ولديها كان رهيباً، وخطيراً جداً، بحيث إن دراسة الصغيرة أصبحت الأمل الوحيد المتبقّي لها.

(١) بصيغة الجمع «أنتم» بدلاً من «أنتِ» التي تُستعمل في مخاطبة المفرد من قبيل اللياقة والاحترام (المترجم).

تركتني المديرة أسكن في المدرسة الداخلية كما لو أنها فندق.

عن قريب سيكون في إصبعي خاتم الخطوبة الماسيّ. عندئذٍ تكفّ الناظرات عن توجيه الملاحظات إليّ. وسوف يراودهن الشك في أنني مخطوبة، لكن الماس باهظ الثمن، ولن يرتاب أحد في كونه حقيقياً ولا يعود أحد يقول شيئاً بسبب ثمن هذا الماس الذي أُعْطِيَ للفتاة الصغيرة جداً.

أعود إلى هيلين لاغونل. إنها متمدّدة على مقعد وتبكي لأنها تظن أني سأغادر المدرسة الداخلية. أجلس على المقعد. يضنيني جمال جسد هيلين لاغونل الممدد بجانب جسدي. هذا الجسد رائع، حُرٌّ تحت الثوب، في متناول اليد. النهدان كما لم أرَ مثلهما أبداً، ولم ألمس مثلهما أبداً. ليست محتشمة، هيلين لاغونل، ولا مبالية، تتجوّل عارية تماماً في المهاجع. أجمل ما أعطاه الله من كل الأشياء هو جسد هيلين لاغونل هذا، الذي لا مثيل له، هذا التوازن بين القوام والطريقة التي يحمل بها الجسدُ النهدين، خارجه، كشيئين منفصلين. لا شيء أعجب من هذه الاستدارة الخارجية للنهدين المحمولين، هذه الخارجانية الممدودة نحو اليدين. حتى أن جسد أخي الصغير الأشبه بجسد حمّال صيني، يختفي أمام هذه الشيء الرائع، أجساد الرجال لها تقاطيع، بخيلة، محتجزة، كما أنها لا تتلف مثل تقاطيع هيلين

لوغونل التي، هي لا تدوم أبداً، ربما لصيف واحد بحساب جيّد، وهذا كل شيء. أتت هيلين لاغونيل من مرتفعات دالات[1]. أبوها موظف في البريد. وصلت في ذروة السنة الدراسية منذ وقت قصير. إنها خائفة، تقف إلى جانبكم، وتبقى هناك لا تنطق بكلمة، وغالباً ما تبكي. بشرتها وردية وبنيّة بلون الجبل، تُعْرَف دائماً هنا حيث الصغيرات جميعهن ذوات سحنات شاحبة مخضرّة من فقر الدم، ومن شدّة الحرّ. لا تذهب هيلين لاغونل إلى المدرسة. لا تعرف الذهاب إلى المدرسة هيلين ل. لا تتعلّم، ولا تحفظ شيئاً. تتردّد على الدروس الابتدائية في المدرسة الداخلية لكن هذا لا يفيد في شيء. تبكي متكئة على جسدي، وأنا أداعب شعرها، يديها، وأقول لها إنني سأبقى معها في المنامة. إنها لا تعلم أنها جميلة جداً، هيلين ل. ولا يعرف والداها ماذا يفعلان بها، ويسعيان إلى تزويجها في أسرع وقت. ستجد كل مَن تريد مِن الخُطاب، هيلين لاغونل، لكنها لا تريدهم. لا تريد أن تتزوّج، تريد أن تعود مع أمّها. هي. هيلين ل. هيلين لاغونل. ستفعل في النهاية ما تريده أمها. إنها أجمل مني بكثير، أجمل من هذه التي ترتدي قبعة بهلوان، وتنتعل حذاء مُزركشاً، وصالحة للزواج أكثر منها بما لا حدّ له، هيلين لاغونل، هي، يمكن تزويجها، ويمكن وضعها في الحياة

---

(١) Dalat. مدينة في فيتنام (المترجم).

الزوجية، يمكن تخويفها، يمكن أن يُفسَّر لها ما يخيفها ولا تفهمه، يمكن أن تؤمَر بالبقاء هناك، وأن تنتظر.

هيلين لاغونل، هي، ما زالت غير عليمة بما أعلمه. وهي مع ذلك في السابعة عشرة. هذا كما لو أنني خمّنْتُ أنها لن تعلم أبداً ما أعلمه.

جسد هيلين لاغونل ثقيل، لا يزال بريئاً، ونعومة جلدها أشبه بنعومة بعض الفواكه، حتى أنها لا تكاد تُلحظ، وهمية قليلاً، وهذا كثير. هيلين لاغونل تثير الرغبة في قتلها، كأنما توقظ الحلم الرائع بأن تميت نفسها بيديها. تقاطيع زهرة الدقيق هذه، تحملها دونما علم بها، وتظهر هذه الأشياء للأيدي كي تعجنها، وللفم كي يأكلها، من دون أن تحتفظ بها، من دون معرفة، وأيضاً من دون معرفة سلطانها الخرافي. أودّ أن آكل نهدَي هيلين لاغونيل كما يأكل هو نهدَيّ أنا في غرفة المدينة الصينية حيث أذهب كل مساء لتعميق معرفتي بالله. ويتم التهام هذين النهدين الأشبه بزهرة الدقيق اللذين هما نهداها.

أنا مُضناة بالرغبة في هيلين لاغونل.

أنا مُضناة بالرغبة.

أريد أن آخذ معي هيلين لاغونل إلى هناك، حيث أتمتع كل مساء، وأنا مغمضة العينين، متعة تجعلني أصرخ. أودّ لو أعطي هيلين لاغونل لهذا الرجل الذي يفعل بي هذا الفعل لكي يفعله

بها أيضاً. يفعل ذلك في حضوري، وتفعله وفقاً لرغبتي، وتُسلم نفسها هناك حيث أُسلِمُ نفسي. لعلني بالتفاف جسد هيلين لاغونل، باختراق جسدها، أحصل على المتعة التي تصلني منه، وعندئذٍ تكون المتعة الحاسمة. متعة مميتة.

أراها كما لو كانت من لحم واحد هي ورجل شولن هذا ولكن في حاضر مُشِعّ، مشمس، بريء، في تفتح ذاتي متكرر، في كل حركة، في كل دمعة، في كل عيب من عيوبها، في كل جهالة من جهالاتها. هيلين لاغونل هي امرأة هذا الرجل البارع الذي يمتعني متعة بالغة التجرّد، شديدة القسوة، هذا الرجل الغامض القادم من شولن، من الصين، هيلين لاغونل هي الصين.

لم أنسَ هيلين لاغونل. لم أنسَ هذا الرجل البارع. عندما رحلت، عندما تركته، بقيت عامين من دون أن أقترب من أي رجل آخر. غير أن هذا الوفاء الغامض إنما كان وفاء لنفسي.

ما زلت في عداد هذه العائلة، أقيم فيها بعيداً عن كل مكان آخر. في جفافها، في قسوتها الرهيبة، في أذيّتها، أثق بنفسي ثقة عميقة، ويبلغ يقيني الجوهري أقصى مداه، أي أنني سأكتب في وقت لاحق.

هناك المكان الذي سأجد نفسي فيه حالما يمضي الحاضر، بعيداً عن كل مكان آخر. الساعات التي أمضيها في شقّة شولن تُظهر هذا المكان في ضوء نضر، جديد. هذا مكان غير صالح للتنشّق،

يحاذي الموت، مكان للعنف، للألم، لليأس، للعار. وهكذا هو مكان شولن، من الجهة الأخرى للنهر، بعد عبور النهر.

لم أعرف ماذا جرى لهيلين لاغونل، وما إذا كانت قد ماتت. هي التي غادرت المنامة أولاً، قبل سفري إلى فرنسا بوقت طويل. عادت إلى دالات. كانت أُمّها هي التي طلبت منها العودة إلى دالات. على ما أذكر كانت الغاية من ذلك هي تزويجها، وكان عليها أن تقابل قادِماً جديداً من العاصمة. قد أكون على خطأ وأنني أخلط بين ما أعتقد أنه حَلّ بهيلين لاغونل وبين هذه المغادرة المفروضة بناء على طلب أُمّها.

أقول لكم أيضاً ما كان قد حصل، وكيف حصل. ها هو: كان يسرق الخدم لكي يذهب لتدخين الأفيون. يسرق أُمّنا. يفتش الخزائن. يسرق. يقامر. كان أبي قد اشترى بيتاً في أنتر - دو - مير[1] قبل أن يموت. كان ذلك البيت ملكنا الوحيد. يقامر. تبيعه أمي لسداد الديون. وليس هذا بكافٍ، وهذا لم يكن كافياً في أي وقت. عندما كان شاباً أراد أن يبيعني لزبائن من الكوبول. ومن أجله أرادت أمي أن تستمرّ في العيش، لكي يستمر هو في أن يأكل، وأن ينام في الدفء، وأن يستمر في سماع مَن يناديه باسمه، والملكية التي اشترتها له بالقرب من أمبواز كلّفتها عشر

---

(١) L'Entre-deux-Mers. ما بين البحرين هذا اسم منطقة طبيعية في جنوب شرق فرنسا (المترجم).

سنوات من التوفير. وفي ليلة واحدة تَمّ رَهْنُها. تدفع هي الفوائد. وكل إنتاج قطع أشجار الغابات التي حدثتكم عنها ذهب في ليلة واحدة. لقد سرق أمي وهي تحتضر. كان شخصاً يفتش في الخزائن، وكانت لديه حاسة شمّ قوية، ويعرف جيداً أين يفتش، وكيف يكتشف ما في البيت من أشياء مخفية. لقد سرق خواتم الزواج، تلك الأشياء وغيرها الكثير، والمجوهرات، والأغذية. سرق دو. والخدم، وأخي الصغير. وأنا كثيراً. كان بإمكانه أن يبيعها، هي، أمه. عندما ماتت أحضر الكاتب العدل في الحال، في انفعال الموت. يعرف كيف يستفيد من انفعال الموت. قال الكاتب العدل إن الوصية باطلة. وإنها بالغت في إيثار ابنها البكر على حسابي. الفرق كبير، مضحك. وعليّ مع علمي بذلك أن أقبل أو أن أرفض. أقرر أنني أقبل: أوقّع. قبلت ذلك. قال أخي خافضاً بصره: شكراً. يبكي. في الانفعال الناجم عن موت أُمّنا. صادق هو. عند تحرير باريس، كان ملاحقاً من دون شك بتهمة التعامل[1] في الجنوب، ولم يعد يعرف أين يذهب. جاء إليّ. لم أفهم جيداً أبداً أنه يهرب من خطر. لَعلّه سلَّم أشخاصاً، يهوداً، كل شيء ممكن. إنه لطيف جداً، ودودٌ، شأنه على الدوام بعد قيامه باغتيالات أو عندما يحتاج إلى خدماتكم. كان زوجي معتقلاً خارج الوطن. يتعاطف. يبقى ثلاثة أيام. لقد نسيت، فأنا عندما أخرج لا أغلق

---

(١) المقصود التعامل مع الألمان الذين احتلوا فرنسا (المترجم).

شيئاً أبداً. أخذ يفتش. كنت أحتفظ إلى حين عودة زوجي بالسكر والأرزّ حصتي من بطاقات التموين. يفتش ويأخذ. يفتش أيضاً خزانة صغيرة في غرفتي. يجد. يأخذ جميع مدّخراتي، خمسين ألف فرنك. لم يترك ورقة مالية واحدة. يغادر الشقة مع المسروقات، عندما سأراه مجدداً لن أفاتحه بالأمر، فالخجل الذي سيشعر به كبير جداً، ولن أتمكن من ذلك. بعد الوصية المزيّفة، بِيع قصر لويس السادس عشر المزيّف لقاء لقمة من الخبز. كان البيع مزيّفاً مثل الوصية.

بعد موت أمي أصبح وحيداً. ليس لديه أصدقاء، ولم يكن لديه أصدقاء من قبل، كان لديه أحياناً نساء «يشغّلهن» في مونبرناس، وأحياناً أخرى كان لديه نساء لا يشغّلهن، في البداية على الأقل، وفي بعض الأحيان كان لديه رجال لكنه هو الذي يدفع لهم. كان يعيش في عزلة كبيرة. عزلة تفاقمت مع الشيخوخة. لم يكن سوى وَغْدٍ، وكانت قضاياه تافهة. لقد أشاع الخوف من حوله، وليس أبعد من ذلك. معنا فقد سطوته الحقيقية. لم يكن من رجال العصابات، كان وغد العائلة. مفتش خزائن، قاتل من غير سلاح. لم يكن يعرّض نفسه للشُبهة. يعيش الأوغاد كما كان يعيش، من دون تضامن، من دون كبرياء، في الخوف. كان يخاف. بعد موت أمي عاش عيشة غريبة في تور[1]

---

(١) Tours. مدينة تقع على نهر اللوار وسط غرب فرنسا (المترجم).

لم يعرف سوى نوادل المقاهي من أجل «معلومات» سباقات الخيل وزبائن القمار مدمني الخمر الذين يلعبون البوكر في القاعة الخلفية.

صار يتشبّه بهم، وراح يُسرف في الشراب، حتى احتقنت عيناه، والتوى فمه. في تور لم يبق له شيء. الملكيتان صُفّيتا، ولم يبق شيء. أقام خلال سنة في مستودع للأثاث استأجرته أُمي. وكان ينام على كنبة طيلة سنة. كانوا قد تركوه يدخل إلى المستودع. بقي هناك سنة. ثم طردوه.

طيلة سنة ظل يأمل أن يستعيد ملكيته المرهونة. قامر طيلة عام بأثاث أُمي في مستودع الأثاث، قامر بتماثيل بوذا البرونزية، وبالنحاسيات، ثم قامر بالأسرّة، ثم بالخزائن، ثم بالشراشف. وذات يوم لم يعد لديه شيء، وهذا يحدث للمقامرين، ذات يوم لم يبق له إلا البدلة التي يرتديها، لا شرشف، ولا غطاء. أصبح وحيداً.

ولا غطاء، وها هو وحيد. لم يطرق بابه أحد طيلة عام، يكتب إلى ابن عمّ له في باريس. وسوف يحصل على غرفة خدم في مالزيرب[1] وسيحصل وقد بلغ من العمر أكثر من خمسين عاماً على أول عمل له، وأولَ أجرٍ في حياته، بصفته حاجباً في شركة

---

(١) Malesherbes. حيّ في باريس.

تأمينات بحرية. دام ذلك، على ما أعتقد، خمسة عشر عاماً.
ذهب إلى المستشفى. لم يمت فيه. مات في غرفته.

لم تتحدث أمي أبداً عن هذا الولد. لم تشك منه أبداً. لم تتحدث عن مفتش الخزائن إلى أحد. كانت هذه الأمومة بمثابة جُنحة. أبقتها مخفية. كان عليها أن تعتقد بأنها غير قابلة للفهم، يتعذّر إبلاغها إلى مَن لا يعرف ابنها كما تعرفه هي، أمام الله، وأمامه وحده. كانت تخبر عنه بعض الترّهات التي تتكرر دائماً. كأن تقول إنه لو أراد لكان هو أذكى الثلاثة، أكثرهم «فناً». أكثرهم نباهة. كما أنه أكثرهم حُباً لأمّه. هو الذي كان، في نهاية المطاف، أكثرهم فهماً لها. لم أكن أعلم، كانت تقول، أن من الممكن انتظار هذا من صبي، انتظار مثل هذا الحدس، هذا الحنان البالغ.

التقينا مرّة، حدثني عن الأخ الصغير الميت. قال: يا لهذا الموت المرعب، هذا شيء فظيع، موت أخينا الصغير، صغيرنا بَولو.

تبقى هذه الصورة عن قرابتنا: مأدبة في سادك. أكلنا نحن الثلاثة على مائدة قاعة الطعام. كانا في السابعة عشرة والثامنة عشرة من العمر. أُمّنا ليست معنا. راح ينظر إلينا، الأخ الصغير وأنا، ثم وضع شوكته، وما عاد ينظر إلا إلى أخي الصغير. نظر إليه مطوّلاً ثم قال له فجأة، بكل هدوء، شيئاً رهيباً. العبارة

تتعلق بالغذاء. قال له إن عليه أن ينتبه، ولا ينبغي أن يأكل كثيراً. الأخ الصغير لا يردّ، يُكمل، يذكّر الآخر الكبير بأن قطع اللحم الكبيرة هي له، ولا ينبغي للصغير أن ينسى ذلك. وإلاّ، قال. أسأله: لماذا لك؟ يقول: لأن الأمر هكذا. أقول: أودّ لو تموت. ولم أعد قادرة على تناول الطعام. وكذلك الأخ الصغير. ينتظر أن يجرؤ الأخ الصغير على النطق بكلمة، كلمة واحدة، فيما قبضتاه المغلقتان جاهزتان فوق الطاولة لكي يهشّم وجهه. لا يقول الأخ الصغير شيئاً. يغدو شديد الشحوب. وبين رموشه وشكُ البكاء.

مات في يوم كئيب. أظن أنه من أيام الربيع، من أيام نيسان. اتصلوا بي هاتفياً. لا شيء، لم يقولوا شيئاً آخر، كان قد وُجِد ميتاً، على الأرض، في غرفته. كان الموت متقدماً على نهاية قصته. في حياته كان الأمر قد انتهى. كان الوقت متأخراً ليموت، كان ذلك قد حصل منذ موت الآخر الصغير. الكلمات ساحرة: انتهى كل شيء.

طلبتْ أن يُدفن هذا معها. ما عدت أذكر في أي مكان، في أي مقبرة، أعرف أنها في اللوار[1]. هما الآن في القبر كلاهما. الاثنان معاً. هذا عدل. الصورة بهيّة إلى حد لا يُطاق.

كان الغسق يهبط في الساعة نفسها طيلة السنة. كان قصيراً

(١) La Loire. منطقة في وسط شرق فرنسا (المترجم).

جداً، وقاسياً تقريباً. في موسم الأمطار على مدى أسابيع، كنا لا نرى السماء، كانت مغطاة بضباب متجانس حتى أن نور القمر لم يكن ينفذ منه. في موسم الجفاف كانت السماء عارية، مكشوفة كلياً، ساطعة. حتى الليالي التي لا يظهر فيها القمر كانت منيرة. كذلك كانت الظلال مرسومة على الأراضي، وعلى المياه، وعلى الطُرق، وعلى الجدران.

لا أتذكر النهارات جيداً. كانت الإضاءة الشمسية تبهت الألوان، كانت تسحقها. أما الليالي فأتذكرها. كانت الزرقة أبعد من السماء، كانت وراء كل الكشافات، كانت تغطي قاع العالم. كانت السماء، في نظري، هي تلك السحابة من الإشراق الخالص التي تخترق الزرقة، هذا الانصهار البارد في ما يتعدّى كل لون. أحياناً، عندما تكون أمي حزينة، في فينهلونغ، كانت تأمر بقطر المركبة ذات العجلتين وكنا نذهب إلى الريف لرؤية ليل موسم الجفاف. أُتيحت لي تلك الفرصة، وكانت لي تلك الليالي، وتلك الأُم. كان النور يهبط من السماء في شلالات ذات شفافية خالصة. كان الليل أزرق، وكنا نأخذه باليد. أزرق. كانت السماء ذلك الخفقان الدائم لسطوع النور. كان الليل يضيء كل شيء، يضيء كل الريف من كل ضفة نهر حتى مدى النظر. كانت كل ليلة فريدة من نوعها، وكان يمكن مناداة كل ليلة بوقت دوامها. كان صوت الليل هو صوت كلاب الريف. كانت الكلاب تنبح السرّ الخفيّ. وكانت أصوات

نباحها تتجاوب من قرية إلى قرية حتى الاستهلاك الكامل لمكان الليل وزمانه.

في ممرات ملعب فترة الاستراحة ترتسم ظلال أشجار تفاح القُرفة بالحبر الصيني. والحديقة كلها ساكنة في جمود رخامي. كذلك كان البيت، الأثري، الجنائزي، وأخي الصغير الذي كان يمشي إلى جانبي والذي ينظر الآن بإلحاح نحو البوابة المفتوحة على الجادة المقفرة.

ذات مرّة لم يكن هناك أمام المدرسة. السائق وحدة في السيارة السوداء. يقول لي إن الأب مريض، وأن السيد الشاب عاد إلى سادِك. وأنه، هو، السائق تلقى أمراً بالبقاء في سايغون لكي يأخذني إلى المدرسة، ويعيدني إلى المنامة. عاد السيد الشاب بعد بضعة أيام. ومن جديد كان وراء السيارة السوداء، مائلاً بوجهه لئلا يرى النظرات، مسكوناً بالخوف دائماً، تعانقنا، من دون كلام، تعانقنا، هناك، نسينا، أمام المدرسة، تعانقنا، كان يبكي في القبلة. الأب سيعيش أيضاً. ذهب أمله الأخير. وكان قد طلب منه تحقيق هذا الأمل. وتوسّل إليه أن يتركه يحتفظ بي معه أيضاً، ملتصقة بجسده، وقال له إن عليه أن يفهمه، ولا بد أنه هو أيضاً عاش لمرّة على الأقل شغفاً كهذا الشغف في حياته الطويلة، وإن من المستحيل أن يكون بخلاف ذلك، رجاه أن يسمح له بأن يعيش هو أيضاً، لمرّة، شغفاً

مماثلاً، هذه المرّة، هذا الحب المجنون للفتاة الصغيرة البيضاء، وطلب منه أن يترك له الوقت لكي يحبها أيضاً قبل أن يرسلها إلى فرنسا، أن يتركها له أيضاً، ربما لسنة أخرى، إذ لا يمكنه أن يترك منذ الآن هذا الحب، الذي كان حديثاً جداً، ولا يزال قوياً جداً، ولا يزال مفرطاً في عنفه الوليد، وأن من المريع جداً أن ينفصل عن جسده، كما أن هذا الأمر، الذي يعرفه جيداً، هو، الأب، قد لا يتكرر أبداً.

كان الأب قد كرّر على مسامعه أنه يفضل أن يراه ميتاً.

اغتسلنا معاً بماء الجرار المنعش، وتعانقنا، وبكينا، وكان ذلك أيضاً عناقاً حتى الموت، غير أنه هذه المرّة موت بمتعة شديدة الحزن. ثم إنني قلت له. قلت له ألاّ يأسف على شيء، وذكّرته بما كان قد قاله، من أنني قد أذهب إلى أي مكان، وأنني لا أستطيع أن أقرّر سلوكي. قال إن هذا الأمر لم يعد يهمه من الآن فصاعداً، وإن كل شيء قد تمّ تجاوزه. عندئذٍ قلت له إنني كنت أوافق أباه الرأي. وإنني كنت أرفض البقاء معه. ولم أذكر أسباباً لذلك.

هذه واحدة من الجادّات الطويلة في فينهلونغ التي تنتهي عند الميكونغ. هذه جادة تكون خالية دائماً في المساء. في ذلك المساء كما في كل مساء تقريباً كان هناك عطل كهربائي. كل شيء يبدأ من هنا. حالما أصل إلى الجادة وتُغلق البوّابة ورائي

يحدث عطل الضوء. أركض. أركض لأنني أخاف من الظلمة. أركض أسرع فأسرع. وفجأة أظنّ أنني أسمع ركضاً آخر ورائي. وفجأة أصبح واثقة من أن ورائي أحداً يركض في إثري. ألتفت وأنا أركض فأرى، إنها امرأة متقدّمة في العمر، هزيلة جداً، هزيلة كالموت، تضحك وتركض. إنها حافية القدمين، تركض في إثرى لتلحق بي. أتعرّف إليها، إنها مجنونة المحطة، مجنونة فينهلونغ، أسمعها للمرة الأولى، تتكلم في الليل، وتنام في النهار، وغالباً ما يكون ذلك هنا في هذه الجادّة، أمام الحديقة. تركض وهي تصيح بلغة لا أعرفها. خوفي كبير إلى حد أنني لا أستطيع أن أنادي.

يجب أن يكون عمري آنذاك ثماني سنوات. أسمع ضحكها المُعوِل وصيحات فرحها، من المؤكد أنها تسخر مني. أتذكر أنني خفت خوفاً مركزياً. والقول إن ذلك الخوف يتجاوز إدراكي، وقوتي، هو عبارة ملطّفة. ما يمكن قوله هو ذكرى يقين الكائن كله، أي أن المرأة إذا ما لمستني بيدها، وإن لمساً خفيفاً، فسأمرّ أنا بحالة أسوأ بكثير من حالة الموت، هي حالة الجنون. وصلت إلى حديقة الجيران، فإلى البيت، وصعدت الأدراج، وسقطت في المدخل. بعد ذلك بقيت عدّة أيام غير قادرة البتّة على رواية ما جرى لي.

بقيت حتى وقت متأخر من حياتي خائفة من رؤية تفاقم حالةٍ

لأمّي ـ لم أُسمِ بعد هذه الحالة ـ هي الحالة التي تجعلها في وضع الانفصال عن أولادها. أعتقد أنه سيكون عليّ أن أعرف ما سيكون عليه هذا الانفصال عندما يحصل، وليس على أخويّ، لأن أخويّ لا يمكنهما الحكم على تلك الحالة.

كان ذلك قبل بضعة شهور على انفصالنا بصورة نهائية، كان ذلك في سايغون، في وقت متأخّر مساءً، وكنا على شرفة منزل شارع تستار[1]، كانت دو هناك. نظرت إلى أمي، لم أكد أتعرّف إليها. ثم إنني، في نوع من الانمحاء المباغت، من السقوط، وعلى نحو مفاجىء لم أعد أتعرّف إليها أبداً. فجأة كانت هناك، قربي، امرأة جالسة مكان أمي، لم تكن أمي، كانت على هيئتها، لكنها لم تكن أمي أبداً. كانت تبدو في حالة ذهول تقريباً، وكانت تنظر نحو الحديقة العامة، نحو نقطة معيّنة من الحديقة، وكانت تترقّب على ما يبدو حصول حدث وشيك لم أدرك منه شيئاً، كانت تنطوي على شباب في القسمات، وفي النظرة، وكانت توحي بسعادة تحاول أن تكبتها بسبب حياء لا بد أنه مألوف لديها، كانت جميلة. وكانت دو إلى جانبها. وكان يبدو عليها أنها لم تلحظ شيئاً. لم تول المرأة المخيفة اهتماماً بما قلته عنها، عن قسماتها، عن هيئتها السعيدة، عن جمالها، كان ذلك يتأتّى من كونها جالسة هناك بالذات حيث كانت تجلس أُمي عندما جرى التبديل، وحين

(١) Testard.

علمت أن لا أحد كان هناك مكان أمي سواها، ولكن بالضبط لأن تلك الهوية التي لم تكن قابلة للتبديل بهوية أخرى كانت قد اختفت وكنت لا أملك وسيلة لجعلها تعود، ولجعلها تبدأ بالعودة. لم يعد هناك شيء يتقدّم لكي يقيم في الصورة. لقد أصبحتُ مجنونة وأنا في تمام العقل. حان وقت الصراخ. صرخت. صرخة ضعيفة، نداء استغاثة لينكسر هذا الجليد الذي يتجمد فيه حتى الموت كل المشهد. التفتت أمي نحوي.

ملأت المدينة كلها متسوّلة الجادة هذه. ملأتها بكل متسوّلات المدن، ومتسوّلات مزارع الأرزّ، ومتسوّلات المدارج المحاذية لجبل سيام، ومتسوّلات ضفاف الميكونغ، ملأتها تلك التي كانت قد أخافتني. جاءت من كل مكان. تصل إلى كالكوتا على الدوام، من حيثما جاءت. ونامت على الدوام في ظل أشجار التفاح القُرفية لملعب فترة الاستراحة. وعلى الدوام كانت أمي هناك إلى جوارها، تعالج قدمها التي ينخرها الدود، والمليئة بالذباب.

إلى جانبها فتاة الحكاية الصغيرة. تحملها من مسافة ألفي كيلومتر. ما عادت تريدها أبداً، تعطيها، هيّا، خذي. لم يعد هناك أطفال. لا أطفال. جميعهم موتى أو مرميّون، هذا يشكل كتلة في نهاية الحياة. هذه التي تنام تحت أشجار التفاح القرفية لم تمت بعد. هي التي ستعيش مدّة أطول. ستموت داخل المنزل، في ثوب مخرّم. وسيُبكى عليها.

إنها على منحدرات مزارع الأرزّ المحاذية للمدرج، تصرخ وتضحك بأعلى صوتها. لها ضحكة ذهبية، توقظ الموتى، توقظ كل مَن يصغي إلى ضحك الأطفال. تبقى أمام المنزل الريفي أياماً وأياماً، وكان في البيت بيض، تتذكر، يقدّمون الطعام للمتسوّلين. ثم ها هي تستيقظ في الصباح الباكر وتشرع في المشي، وذات يوم ترحل، إذهبوا لمعرفة لماذا، تنعطف نحو الجبل، تجتاز الغابة وتمضي في الدروب التي تمتدّ على طول قمم سلسلة جبال سيام. تجتاز، ربما، بدافع الرؤية، رؤية سماء صفراء وخضراء في الجانب الآخر من السهل. تأخذ في الانحدار نحو البحر، نحو النهاية. تطوي بخطواتها الكبيرة منحدرات الغابة. تجتاز، تجتاز. تلك هي الغابات الموبوءة. المناطق الحارّة جداً. لا أثر فيها لهواء البحر الصحّي. هناك ضوضاء البرغش الراكدة. والأطفال الموتى، والمطر الذي يتساقط يومياً. ومن ثم ها هي الدِلتات. إنها أكبر الدِلتات على وجه الأرض. إنها وحلٌ أسود. تقع ناحية شيتاغونغ. غادرت المدارج، والغابات، وطُرق الشاي، والشموس الحُمر، تعبر من أمامها فُتحة الدِلتات. تمضي في اتجاه دوران العالم، الاتجاه البعيد دائماً، المحيط، اتجاه الشرق. ذات يوم تصبح أمام البحر، تصرخ، تضحك من نقيقها العجائبي الأشبه بزقزقة عصفور. بسبب الضحك تجد في شيتاغونغ سفينة خيزرانية تعبرها، ويريد الصيادون أن يأخذوها فعلاً، تعبر بصحبتهم خليج البنغال.

يبدأون، يبدأون في ما بعد برؤيتها قرب المزابل العامة في ضواحي كالكوتا.

ثم إنهم يضيعونها. ثم يجدونها ثانية، إنها خلف سفارة فرنسا في تلك المدينة نفسها. وهي تنام في حديقة، متخمة بغذاء غير محدود.

تكون هناك في الليل. ثم تكون في نهر الغانج عند طلوع النهار. مزاجها ضاحك وساخر دائماً. لا تعود تغادر. هنا تأكل، وتنام، هنا يسود الهدوء في الليل، تبقى هناك في حديقة الغار الوردية.

جئت ذات يوم. مررت من هناك. إنه الحي الإنكليزي، حدائق السفارات، إنها الريح الموسمية، وملاعب كرة المضرب خالية. وعلى طول نهر الغانج يضحك المصابون بالبرص.

كنا قد توقفنا في كالكوتا. حدث عطل في السفينة العاملة على الخط. كنا نزور المدينة لتمضية الوقت. وسنغادر مساء الغد.

خمسة عشر عاماً ونصف العام ـ سرعان ما يُعرف الأمر في محطة سادِك. لا شيء سوى هذه الهيئة تنبىء عن العار. لا تدرك الأم معنى أي شيء، ولا معنى طريقة تربية فتاة صغيرة. الطفلة المسكينة. لا تصدّقوا، هذه القبّعة ليست بريئة. هذا يعني أنها للفت الأنظار، ولا أحمر الشفاه هذا بريىء، كل ذلك يدلّ على

شيء ما، وليس بريئاً. هذا يعني أن كل ذلك للفت الأنظار، وجلب المال. الأخوة، أوغاد. يقال إنه صيني، ابن ملياردير، صاحب ڤيلاّ الميكونغ، المزخرفة بالخزف الصيني. حتى هو، بدلاً من أن يرى نفسه مكرّماً، لا يريدها لابنه. عائلة أوغاد بيض.

كانوا ينادونها بلقب السيدة، وكانت قد جاءت من سافاناخت. زوجها معروف في فينهلونغ. لم تُرَ في فينهلونغ طوال عام. وذلك بسبب هذا الشاب، مساعد الحاكم في سافاناخت. لم يعد بإمكانهما أن يتحابّا. عندئذٍ قتل نفسه بطلقة مسدس. وصلت القصّة حتى محطّة فينهلونغ الجديدة. يوم مغادرته سافاناخت إلى فينهلونغ، اخترقت القلب رصاصة. حدث ذلك في ساحة محطة فينهلونغ الكبيرة في عز الظهر. كانت قد قالت له إن علاقتهما يجب أن تنتهي بسبب بناتها الصغيرات وزوجها المعروف في فينهلونغ.

كان ذلك يحدث في حي شولن السيىء السمعة. في كل مساء تذهب هذه الفاسقة الصغيرة لكي تُسلم جسدها للمداعبة في أحضان مليونير صيني قذر. ثم إنها تلميذة في المدرسة التي توجد فيها الفتيات الصغيرات البيضاوات، الصغيرات الرياضيات البيضاوات اللواتي يتدربن على السباحة السريعة في مسبح النادي الرياضي. ذات يوم سوف يتلقَين أمراً بالامتناع عن التحدّث مع ابنة معلّمة سادِك.

في فترة الاستراحة، تنظر نحو الشارع، وحيدةً، مستندة إلى عمود السقيفة. لا تقول شيئاً من هذا لأمها. تستمر في القدوم إلى الصف في الليموزين السوداء لصاحبها صيني شولن. ينظرن إليها وهي تغادر. لن يحصل أيّ استثناء. لن تكلّمها أيّ منهنّ. هذه العزلة أيقظت الذكرى الصافية لسيدة فينهلونغ. آنذاك كانت قد بلغت الثامنة والثلاثين من العمر، وكانت الطفلة في العاشرة. والآن هي في السادسة عشرة حين تتذكر.

السيدة على شرفة غرفتها، تنظر إلى الجادّات على طول الميكونغ، أراها عندما أعود من التعليم الديني مع أخي الصغير. الغرفة وسط قصر كبير ذي شُرفات مغطاة، ويقع القصر وسط حديقة الغار الوردي والنخيل. الفارق نفسه يفصل السيدة والفتاة الصغيرة ذات القبعة المسطحة عن الناس الآخرين في المحطة. وكلتاهما على حد سواء تنظران إلى الجادّات الطويلة المحاذية للأنهار. كلتاهما معزولتان. وحيدتان، ملكتان. عارهما واضح. كلتاهما عُرضة لتشويه السمعة بسبب طبيعة هذا الجسد الذي يملكانه، الذي يداعبه العشاق، وتقبّله أفواههم، وهما مستلمتان لعار متعة مميتة، من ذلك الموت الغامض لعشاق من دون عشق. في هذا تكمن المسألة، في هذا المزاج المميت. هذا أمر يتعدّاهما، يتعدّى غرفتيهما، هذا الموت العنيف الذي تُعرف حقيقته في المدينة كلها، وفي محطات الأدغال، ومراكز

الأقضية، وحفلات الاستقبال، والحفلات الراقصة البطيئة التي تقيمها الإدارات العامة.

استأنفت السيدة هذه الاستقبالات الرسمية، معتقدة أن الأمر قد تمّ، وأن رجل سافاناخت الشاب قد طواه النسيان. إذن استعادت السيدة أمسياتها التي تحرص عليها لكي يتمكن الناس من رؤية بعضهم بعضاً من وقت إلى آخر، وكذلك لكي يتمكنوا، من وقت إلى آخر، من الخروج لكي يكون بوسعهم الخروج، من وقت إلى آخر، من العزلة الرهيبة المخيّمة على محطات الأدغال الضائعة على امتداد مضلّعات مزارع الأرزّ الشاسعة، الخروج من الخوف، من الجنون، من الحُمّيات، من النسيان.

مساءً عند بوّابة الخروج من المدرسة، الليموزين نفسها، قبّعة الوقاحة والطفولة نفسها، الحذاء المزركش نفسه، وهي، تذهب، تذهب لكي تمكّن الملياردير الصيني من تعرية جسدها، ولسوف يغسلها تحت الرشاش، مطوّلاً، كما كانت تفعل كل مساء عند أمّها بماء الجرّة المنعش الذي يحتفظ به من أجلها، ثم سيحملها مبلّلة إلى السرير، وسيشغّل المروحة، ويشرع في تقبيلها في كل مكان أكثر فأكثر وستطلب المزيد والمزيد دائماً، وبعد ذلك ستعود إلى المنامة، ولن يكون هناك أحد ليعاقبها، ويضربها، ويشوّهها، ويهينها.

كان قد قُتِل في آخر الليل، في ساحة المحطة الكبرى

الساطعة بالأنوار. كانت ترقص وكان النهار قد طلع. وكان قد أحاط بالجسد. ثم مع مرور الوقت هشّمت الشمس الشكل. لا أحد تجرّأ على الاقتراب. وسوف تقترب الشرطة، عند الظهر، وبعد أن تصل زوارق السفر، لن يكون هناك شيء، وستغدو الساحة نظيفة.

قالت أمي لمديرة المدرسة الداخلية: هذا لا شأن له، كل ذلك بلا أهمية، أرأيت؟ هذه الفساتين البالية، هذه القبّعة الوردية وهذا الحذاء المذهّب، كم يلائمها كل هذا؟ تبدو الأم سكرى من الفرح حين تتكلم عن أولادها وعندئذٍ يغدو سحرها أكبر. تصغي الناظرات الشابات في المدرسة الداخلية إلى الأم بشغف. الحميع، تقول الأم، يدورون حولها، جميع رجال المحطة، المتزوجين منهم وغير المتزوجين، يدورون حول هذا، يرغبون في هذه الصغيرة، في هذا الشيء، غير المحدّد تماماً بعدُ، انظروا، لا تزال طفلة. مسربلة بالعار، يقول الناس؟ وأنا أقول: كيف تظهر البراءة لكي تتسربل بالعار؟

تتحدّث الأم، وتتحدث. تتحدّث عن الدعارة الساطعة وتضحك، تتكلم عن الفضيحة، عن هذا التهريج، عن هذه القبّعة المنتحَلة، عن هذه الأناقة الرفيعة لطفلة عبور النهر، وتضحك من هذا الشيء الذي لا يُقاوَم هنا في المستعمرات الفرنسية، أتحدث، تقول، عن جلد البيضاء هذا، عن هذه الطفلة الصغيرة

التي كانت حتى الآن مخفية في محطات الأدغال والتي وصلت فجأة في رائعة النهار وتتعرّض للشبهة على مسمع ومرأى الجميع، مع وغد صيني كبير من أصحاب المليارات، وتضع في أصبعها خاتمًا ماسيًا مثل مصرفية شابة، وتبكي.

عندما رأت الخاتم الماسي قالت بصوت خافت: هذا يذكّرني بمحبس صغير وضعته وأنا مخطوبة لزوجي الأول. أقول: السيد غامض. وضحكنا. كان هذا اسمه، قالت، وهذا صحيح.

تبادلنا النظر مطوّلاً ثم ابتسمت ابتسامة لطيفة، خفيفة، ساخرة، مشوبة بمعرفة عميقة جداً بأبنائها وبما قد يحصل لهم في ما بعد حتى كدت أن أحدّثها عن شولن.

لم أفعل ذلك، لم أفعله أبداً.

انتظرتْ وقتاً طويلاً قبل أن تستأنف الحديث معي، ثم تحدّثت، بكثير من الحب: هل تعلمين أن هذا الأمر قد انتهى؟ أنك لن تستطيعين أبداً أن تتزوجي هنا في المستعمرة؟ أهزّ كتفيّ، أضحك. أقول: أستطيع أن أتزوّج في كل مكان، عندما أريد. تشير أمي بأن لا. لا. تقول: هنا الجميع يعرفون بعضهم بعضاً، هنا لم يعد بإمكانك أن تتزوّجي. تنظر إليّ وتقول الأشياء التي لا تُنسى: أنت تعجبينهم؟ أجيب: هذا هو الحال، أعجبهم مع ذلك. هنا تقول: أنت تعجبينهم أيضاً بسبب ما أنت عليه.

تسألني أيضاً: «أمن أجل المال فقط ترينه؟ أتردّد ثم أقول إن ذلك من أجل المال فقط. نظرت إليّ مرة أيضاً مطيلة النظر؛ إنها لا تصدقني. تقول: أنا لا أشبهك، لقد عانيت في الدراسة أكثر منك، وكنت جدّية جداً، كذلك كنت لمدة طويلة، وفي وقت متأخّر جداً فقدت حسّ المتعة.

كان يوماً من أيام العطلة في سادِك. كانت ترتاح على كرسيّ هزّاز، مادة رجليها على مقعد. وكانت قد أطلقت تيّاراً هوائياً بين أبواب الصالون وغرفة الطعام. كانت هادئة، ليست سيئة، فجأة لمحت صغيرتها، وكانت لديها رغبة في التحدث إليها.

لم نكن بعيدين عن النهاية، عن التخلي عن أراضي السدّ. غير بعيدين عن السفر إلى فرنسا.

كنت أنظر إليها وهي تنام.

من وقت إلى آخر كانت أمي تصدر أمراً: غداً نذهب إلى المصوّر. تتذمّر من الثمن لكنها تدفع مع ذلك نفقات صور العائلة. الصور، نحن ننظر إليها، لا ننظر بعضنا إلى بعض لكننا ننظر إلى الصور، كل منا على حِدة، من دون أي تعليق، غير أننا ننظر إليها، نرى أنفسنا فيها. نرى أفراد العائلة الآخرين واحداً واحداً أو مجتمعين. نرى أنفسنا مجدداً. عندما كنا صغاراً جداً في الصور القديمة ونرى أنفسنا في الصور الحديثة. لقد ازداد الانفصال بيننا. حالما يُنْظَر إلى الصور توضع مع البياضات في الخزائن. تطلب أمي تصويرنا لكي ترانا، ترى ما إذا كنا نكبر

بصورة طبيعية. تنظر إلينا طويلاً، مثلما تفعل أمهات أخريات، وأولاد آخرون. تقارن الصور بعضها ببعض، وتتحدّث عن نموّ كل واحد منا. ولا أحد يرد عليها.

أمي لا تطلب تصوير شيء سوى أبنائها. لا شيء آخر. ليس لديّ صورة لفينهلونغ، أية صورة، ولا أية صورة للنهر، ولا أية صورة للجادات المستقيمة المحفوفة بأشجار التمر الهندي التي جلبها الغزو الفرنسي، ولا أية صورة للبيت، ولا أية صورة لغرف نومنا المطلية بالكلس الأبيض مع الأسرّة الكبيرة المصنوعة من جديد أسود مذهب، والمضاءة كصفوف المدرسة بمصابيح الجادات المحمرّة، وعاكسات الضوء المصنوعة من صفائح معدنية خضراء، ولا أية صورة لهذه الأماكن المدهشة، المؤقتة دائماً، في ما يتعدّى كل بشاعة، تمهيداً للفرار، والتي كانت أمي تقيم فيها بشكل مؤقت، في انتظار، كما كانت تقول، الإقامة الحقيقية، لكن في فرنسا، في ملك المناطق التي كانت قد تحدثت عنها طيلة حياتها والتي كانت تقع تبعاً لمزاجها، ولِسنّها، ولتعاستها، بين بادي ـ كاليه وأنتر ـ دو ـ مير[1]. عندما ستتوقف نهائياً، وتقيم في اللوار[2]، ستكون غرفتها نسخة عن غرفتها الرهيبة في سادِك. ولسوف تنسى.

---

(١) Pas-de-Calais. إقليم في شمال فرنسا ـ L'Entre-deux-Mers. إقليم في جنوب شرق فرنسا (المترجم).

(٢) Le Loire. أطول نهر في فرنسا (١٠٠٦كلم)، يمر بعدة أقاليم (المترجم).

لم تكن تطلب أبداً أخذ صور للأماكن، للمناظر الطبيعية، لا شيء سوى صور لنا، نحن أولادها، وفي معظم الأحيان كانت تجمعنا لكي تكون الصورة أقل كلفة. بعض صور الهواة التي أُخذت لنا التقطها أصدقاء لأمّنا، زملاء جدد قادمون إلى المستعمرة كانوا يأخذون مناظر استوائية، أشجار جوز الهند، وحمّالين صينيين، لكي يرسلوها إلى عائلاتهم.

تعرض أمي خفيةً صور أولادها على عائلتها هي في أثناء فُرصها. نحن لا نريد الذهاب إلى تلك العائلة. لم يتعرّف إليها أخواي أبداً. أما أنا، الأصغر، فكانت أمي تصحبني لزيارة أسرتها في البداية. ثم لم أعد أذهب إليها، لأن خالاتي ما عدنَ يُردن لبناتهنّ أن يَريْنني بسبب سلوكي المشين، عندئذٍ لم يبقَ لأمي سوى الصور لكي تعرضها، فكانت تعرضها، منطقياً، وعقلياً، تعرض على بنات أخواتها ما لديها من أبناء. كان عليها أن تفعل ذلك، فكانت تفعله، بنات الخالات هؤلاء هُن اللواتي بقَين من العائلة، وإذن فإنها تريهن صور العائلة. هل نلحظ شيئاً عن تلك المرأة من خلال طريقة الحياة هذه؟ من خلال هذا الاستعداد الذي يحملها على الذهاب حتى نهايات الأشياء من دون أن تتخيل أبداً أن تفارق، أن تترك هناك، بنات الخالات، والتعب، والسُّخرة؟ أظن ذلك. في شجاعة النوع هذه، هذه الشجاعة غير المعقولة، أجد أنا الفضيلة التامة.

عندما أصبحت مُسِنَّة، وشعرها أبيض، ذهبت أيضاً إلى

المصوّر، ذهبت إليه وحدها، طلبت أن تُصوَّر بفستانها الجميل الأحمر الغامق وحُليتيها، قِلادتها ومشبكها المؤلف من ذهب وجاد، قطعة صغيرة من الجاد مغلّفة بالذهب. تبدو في الصورة بتسريحة شعر جميلة، من دون تجاعيد، أيقونة. كان أهل البلاد الأصليون يذهبون هم أيضاً إلى المصوّر، مرَّةً في الحياة، عندما كانوا يرون أن الموت يقترب. كانت الصور كبيرة، وكانت كلها على قياس واحد، وكانت مؤطّرة ضمن إطارات مذهّبة ومعلّقة بالقرب من هيكل الأجداد. كل الأشخاص المصوّرين، وقد رأيت منهم الكثيرين، كانت صورهم متشابهة وكأنها صورة واحدة، وكان تشابههم مذهلاً. وليست الشيخوخة وحدها هي التي تتشابه، إنما كانت الصورة منقّحة، دائماً، بحيث إن قسمات الوجه، إن كان قد بقي منها شيء، كانت ملطّفة. كانت الوجوه مُجمّلة بالطريقة ذاتها لمجابهة الأبدية، كانت ممحوّة، مجدّدة الشباب على نمط واحد. كان ذلك ما يريده الناس. هذا التشابه ـ هذا التكتم ـ يجب أن يَسِم ذكرى مرورهم عبر العائلة، وأن يشهد على فرادة هذا المرور وفعّاليته في آن معاً، كلما كانوا متشابهين كان الانتماء إلى صفوف العائلة صريحاً، علاوة على ذلك كان جميع الرجال يعتمرون العمامة ذاتها، وكانت النساء يضفرن شعورهن على شكل الكعكعة ذاتها، وكان الرجال والنساء يرتدون الثوب نفسه ذا الياقة المستقيمة، وكانت لهم جميعاً السيماء نفسها التي ما زلت أتعرّف إليها من بين الجميع.

وتلك السيماء التي كانت سيماء أمي في صورتها بالفستان الأحمر كانت سيماؤهم، كانت هي بالذات، نبيلة، يقول بعضهم، وممحوّة، يقول آخرون.

ما عادوا يتحدثون عن هذا الأمر أبداً. هذا شيء مفروغ منه، فلن يسعى بعد الآن لحمل أبيه على تزويجه منها. ولن تكون لدى الأب أية رأفة بابنه، وهو لا يرأف بأحد، من بين جميع المهاجرين الصينيين الذين يقبضون بأيديهم على تجارة المحطة كان صاحب الشرفات الزرق هو الأفظع، والأغنى، وهو الذي تمتد أملاكه إلى أبعد من سادِك بكثير، تمتد حتى شولن، العاصمة الصينية للهند الصينية الفرنسية. وعلم رجل شولن أن قرار والده وقرار الطفلة نهائيان. وبدرجة أقل بدأ يسمع أن السفر الذي سوف يفصله عنهما هو نهاية حكايتهما، وأن هذه الطفلة ليست من النوع الذي يتعيّن تزويجه، وأنها ربما تهرب من كل زواج، وعلى ذلك ينبغي تركها، ونسيانها، وإعادتها إلى البيض، إلى أخويها.

منذ أن أصبح مجنوناً بجسدها لم تعد الصغيرة تتعذب من امتلاكها هذا الجسد، من رقّته، والغريب أيضاً أن أُمّها لم تعد تقلق عليها كما كانت تفعل من قبل، وكأنها كانت قد اكتشفت هي أيضاً أن هذا الجسد كان في نهاية المطاف مُستساغاً، مقبولاً، كأي جسد آخر. أما هو، عاشق شولن، فيعتقد أن نموّ الصغيرة البيضاء يعاني من الحرّ الشديد. هو أيضاً وِلد وكبر في

هذا الحرّ، اكتشف في نفسه امتلاكه هذه القرابة معها. يقول إن كل تلك السنوات الماضية التي قضتها في هذا المناخ الذي لا يُطاق صيّرتها فتاة صغيرة من فتيات هذا البلد من الهند الصينية. وكانت لها نعومة قبضاتهنّ، وشعرهن الكثيف الذي قد يقال إنه أخذ كل القوة، شعر طويل. مثل شعرهن، ولها خصوصاً هذا الجلد، جلد كل هذا الجسد الذي يأتي من ماء المطر الذي يُحتَفظ به هنا لاغتسال النساء والأطفال. يقول إن نساء فرنسا، قياساً على هؤلاء، جلد أجسادهن قاس، حشن تقريباً. يقول أيضاً إن الغذاء المداري الفقير، المؤلف من السمك، والفواكه، له دور في هذا الشأن. وكذلك الأمر بخصوص القطنيات والحرائر التي تصنع منها الملابس، هذه الملابس الفضفاضة دائماً، التي تجعل الجسد بعيداً عنها، حُرّاً، عارياً.

اعتاد عاشق شولن على مراهقة الصغيرة البيضاء حتى تتيّم بها، والمتعة التي ينالها منها كل مساء شغلت وقته وحياته. لم يعد يكلمها تقريباً، ربما كان يعتقد أنها لم تعد تفهم ما سيقوله لها، عن هذا الحب الذي لم يعرفه بعد والذي لا يعرف ماذا يقول عنه. ولعله اكتشف أنهما لم يسبق لهما أن تكلما معاً إلا عندما كانا يتناديان بالصرخات في غرفة المساء. نعم، أعتقد أنه لم يكن يعرف، وأنه اكتشف أنه لم يكن يعرف.

ينظر إليها. ينظر إليها وعيناه مغمضتان. يتنفّس وجهها. يتنفَّس الطفلة، بعينين مغمضتين يتنفّس تنفّسها، يتنفّس هذا الهواء

الساخن الذي يخرج منها، يتراجع شيئاً فشيئاً تمييزه بوضوح حدود هذا الجسد، فهذا الجسد ليس كالأجساد الأخرى، لم ينتهِ، ما زال يكبر في الغرفة، ما زال من دون أشكال مقرّرة وفي كل لحظة يعمل على صنع نفسه، وهو لا يوجد هناك حيث يراه، وإنما هو في مكان آخر أيضاً، وهو يمتد إلى أبعد من مدى الرؤية، نحو اللعب، نحو الموت، وهو مَرِن، يذهب كله في المتعة كما لو كان كبيراً، في السنّ، وهو خالٍ من المكر، وذو ذكاء مخيف.

كنت أنظر إلى ما كان يفعله بي، وكأنه كان يستخدمني ولم أكن قد فكرت أبداً أن بإمكانه أن يفعل ذلك بهذه الطريقة، كان يمضي إلى ما هو أبعد مما كنت آمل وطبقاً لمصير جسدي، هكذا كنت قد أصبحت طفلته. وكان قد أصبح شيئاً آخر في نظري. كنت قد بدأت التعرُّف إلى عذوبة جسده فائقة الوصف، عذوبة عضوه، التي تتعداه هو بالذات، كذلك كان لا بد لظل رجل آخر من أن يمرّ بالغرفة، ظل قاتل شاب، لكنني لم أكن قد عرفته بعد، ولا شيء منه كان يبدو أمام عيني، كذلك كان لا بد لظل صيّاد شاب من أن يمرّ بالغرفة ولكن هذا، نعم، كنت أعرفه، وفي بعض الأحيان كان حاضراً في المتعة وكنت أحدثه عنه، أحدث عاشق شولن، كنت أكلمه عن جسده وعن عضوه أيضاً، عن عذوبته التي لا توصف، عن جرأته في الغابة وعلى ضفاف الأنهار في أشداق الفهود السود. كان كل شيء يصبّ في متعته ويجعله

يأخذني. كنت قد أصبحت طفلته. وكان يمارس الحب مع طفلته كل مساء. وفي بعض الأحيان كان يعتريه الخوف. فجأة يقلق على صحتها وكأنه يكتشف أنها على وشك أن تموت. كما لو كانت تخترقه فكرة أنه يمكن أن يفقدها. وكما لو أنها تصبح شديدة الهزال فجأة، وكان خوفه في بعض الأحيان مباغتاً. كما كان يخاف من هذا الصداع الذي غالباً ما كان يجعلها محتضرة، شاحبة، جامدة، تغطي عينيها عصابة رطبة. وكان يخاف من هذا الشعور بالقرف من الحياة الذي كان ينتابها أحياناً، وتروح تفكر في أمها وتصرخ فجأة وتبكي من فكرة أنها لا تستطيع أن تغيّر الأشياء، وأن تُسعد الأم قبل أن تموت، وأن تقتل هؤلاء الذين تسببوا بهذا الألم. يلتقط هذه الدموع وقد ألصق وجهه بوجهها، ويشدّه إليه، مجنوناً باشتهاء دموعها، باشتهاء غضبها.

يأخذها وكأنه يأخذ طفلته، لعله سيأخذ طفلته على هذا النحو. يلعب مع جسد طفلته، يقلّبه، يغطي به وجهه، فمه، عينيه. أما هي فتترك نفسها مسترخية في الاتجاه الصحيح الذي اتخذته عندما بدأت اللعب. فجأة، تصبح هي التي ترجوه، ولا تفصح عما ترجو، وأما هو فكان يصرخ فيها أن تصمت، يصرخ بأنه لم يعد يريدها، لم يعد يريد أن يتمتع بها، وها هما من جديد متعانقان، مسمّران معاً في الرعب، وها هو هذا الرعب يستمرّ في الانحلال، ويستمرّان في التسليم له، في الدموع، في اليأس، في السعادة.

يلزمان الصمت طوال المساء، في السيارة السوداء التي تعيدها إلى المنامة تضع رأسها على كتفه. يحتضنها. يقول لها إنه لأمر جيد أن تأتي الباخرة «فرنسا» قريباً فتأخذها وتفرّق بينهما. أحياناً يطلب من السائق أن يقوم بجولة على طول النهر. تنام، منهكة، في حضنه. يوقظها بالقبلات.

الأضواء في المنامة زرقاء. وهناك رائحة البخور. يحرقون البخور عند الغسق دائماً. الحرارة راكدة والنوافذ مفتوحة على وسعها وما من نسمة هواء. أخلع حذائي لئلا أُحدث ضجة لكنني هادئة، فأنا أعلم أن الناظرة لن تستفيق، وأنَّ من المقبول الآن أن أعود ليلاً في أي ساعة أريد. ذهبتُ في الحال إلى مكان هـ.ل. قلقة بعض الشيء كالعادة دائماً، وخائفة دائماً من أن تكون قد هربت من المدرسة الداخلية في النهار. إنها هناك. مستغرقة في النوم. هـ.ل. أحتفظ بذكرى نوم عنيد، عدواني تقريباً. رافض. ذراعاها العاريتان تحيطان برأسها، مهملتان. الجسد ليس مستلقياً بطريقة صحيحة كأجساد الفتيات الأخريات، وساقاها مطويتان، ولا أرى وجهها، الذي انزلقت عليه مخدّتها. خمّنتُ أنها كانت تنتظرني، ثم نامت على هذا النحو، نافدة الصبر، غاضبة. لا بد أنها بكت أيضاً، ثم سقطت في الهاوية. كنت أودّ أن أوقظها وأن نتحدّث معاً بصوت خافت. لم أعد أتكلم مع رجل شولن، ولم يعد يتكلم معي، وأنا بحاجة إلى سماع أسئلة هـ.ل. لديها هذا الاهتمام الذي لا مثيل له لدى

الناس الذين لا يسمعون ما يقال لهم. لكن من غير الممكن إيقاظها. فلو تم إيقاظها في قلب الليل على هذا النحو فلن يعود بإمكانها أن تنام مجدداً. تنهض، ترغب في الخروج، تخرج، تهبط الدرج مسرعة، تسير في الممرات، الملاعب الكبيرة خالية، تركض، تناديني، سعيدة جداً، لا يمكن القيام بشيء ضد هذا، وعندما تُمنع من النزهة، أعلم أن هذا ما تنتظره، ثم كلا، لن أوقظها. كان الحرّ خانقاً تحت الناموسية، وعندما تُغلق ثانية يبدو غير محتمل. لكنني أعرف أن هذا مردّه إلى كوني قادمة من الخارج، من ضفاف النهر حيث الطقس منعش ليلاً. أنا معتادة، لا أتحرك، أنتظر انقضاء هذا الأمر. ينقضي. لا أنام على الفور أبداً على الرغم من هذه المتاعب المستجدّة في حياتي. أفكّر في رجل شولن. لا بد أنه في علبة ليل بالقرب من لاسورس، مع سائقه، ولا بد أنهما يشربان في صمت، وهما يشربان خمرة الأرزّ عندما يكونان وحدهما. أو لعله عاد، ونام في الغرفة، من دون أن يتكلّم مع أحد أبداً. في ذلك المساء لم أعد أحتمل فكرة رجل شولن. لم أعد أحتمل فكرة هـ.ل. يبدو أن حياتهما مفعمة، وأن هذا يحصل لهما من خارجهما. يبدو أنني لا أملك شيئاً مماثلاً. تقول الأم: هذه لن تكون قانعة بشيء مطلقاً. أعتقد أن حياتي: بدأت تبدو لي. أعتقد أنني بتّ أعرف أن أقولها لنفسي، لدي رغبة غامضة في الموت. هذه الكلمة بتّ لا أفصلها عن حياتي. أعتقد أن لدي رغبة غامضة في أن أكون وحيدة، كما

يتبدّى لي أنني لم أعد وحيدة منذ أن فارقت طفولتي، منذ أن غادرت أسرة الصيّاد. سوف أكتب كتباً. هذا ما أراه في ما يتعدّى اللحظة الراهنة، في الصحراء الكبرى وراء ما يتراءى لي على امتداد حياتي.

لم أعد أذكر ماذا كانت كلمات برقية سايغون. إن كانت تقول إن أخي الصغير قد مات أم أنها كانت تقول استدعاه الله. يبدو لي أنني أذكر أنها كانت تقول استدعاه الله. اتضح لي الأمر: لم تكن هي التي أمكنها أن ترسل البرقية. الأخ الصغير. ميت. أولاً كان هذا غير مفهوم. ثم أقبل الألم، فجأة، من كل مكان، من عمق العالم، غمرني، اجتاحني، وبتّ لا أعرف شيئاً، ولم أعد موجودة إلا بالألم، أي ألم، لم أكن أعرف أي ألم هو، أكان ألم فقدان طفل كان يعاودني قبل بضعة أشهر أم أنه ألم جديد. الآن أعتقد أنه كان ألماً جديداً. طفلي الذي ولد ميتاً لم أكن قد عرفته ولم أكن أريد أن أقتل نفسي كما كنت أريد هناك.

كانوا قد خُدِعوا. الخطأ الذي ارتكبوه، في بضع ثوان، عمّ الكون كله. كانت الفضيحة بمستوى الإله. كان أخي الصغير خالداً ولم يكونوا قد رأوه. كان الخلود مخفياً في جسد هذا الأخ عندما كان حياً ونحن لم نكن نرى أن الخلود كان يسكن هذا الجسد. كان جسد أخي ميتاً. وكان الخلود قد مات معه.

وهكذا يمضي العالم الآن، محروماً من هذا الجسد المُزار،

ومن هذه الزيارة. كانوا قد خدعوا تماماً. عمّ الخطأ الكون كله، وعمّت الفضيحة.

منذ اللحظة التي كان قد أصبح ميتاً فيها، هو، الأخ الصغير، كان على كل شيء أن يموت في إثره. ومن خلاله ينطلق الموت المتسلسل، هو الطفل.

جسد الطفل الميت، هو لم يكن يشعر بشيء من هذه الأحداث التي كان سبباً لحدوثها. والخلود الذي كان قد آواه على مدى سبعة وعشرين عاماً من حياته لم يكن يعرف اسمه.

لم يكن أحد يرى بوضوح سواي. ومنذ اللحظة التي كنت أصل فيها إلى تلك المعرفة، البسيطة جداً، أعني أن جسد أخي كان هو جسدي أيضاً، كان عليّ أن أموت. وأنا ميتة. كان أخي الصغير قد ضمّني إليه، جرّني إليه وأنا ميتة.

كان يجب تحذير الناس من تلك الأشياء. كان ينبغي تعليمهم أن الخلود قابل للموت، وأن بوسعه أن يموت، وأن هذا قد حدث، وأن هذا سيحدث أيضاً. وأن الخلود لا يظهر بما هو كذلك، أبداً، وأنه الازدواج المطلق. وأنه لا يوجد في التفصيل بل يوجد في المبدأ فقط. وأن بإمكان بعض الأشخاص أن يخفوا حضوره، شرط أن يجهلوا الفعل. كما أن بوسع أشخاص آخرين أن يتبيّنوا حضوره لدى هؤلاء الناس، بالشرط نفسه، وهو أن يجهلوا القدرة. وأن الحياة خالدة ما دامت حيّة.

وأن الخلود ليس مسألة وقت كثير أو قليل، وأن هذه ليست مسألة خلود، وأنها مسألة شيء آخر يبقى مجهولاً، وأن من الخطأ أيضاً القول إنه بلا بداية ولا نهاية كما أن من الخطأ القول إن الخلود يبدأ وينتهي مع حياة الروح من حيث إنه يأخذ من الروح ومن السعي وراء الريح. أنظروا إلى رمال الصحارى الميتة، وإلى جسد الأطفال الميت: الخلود لا يمرّ من هنا، وإنما يتوقف ويتجاوز.

أما خلود الأخ الصغير فلا عيب فيه، ولا أسطورة، ولا حادث، وهو طاهر، بمدى واحد. لم يكن لدى الأخ الصغير شيء ليصرخ به في الصحراء، لم يكن لديه شيء يقوله، هناك أو هنا، لا شيء، كان بلا تثقيف، لم يتوصل أبداً إلى أن يثقف نفسه بأي شيء مهما كان. لم يكن يحسن الكلام، ولا يكاد يقرأ، أو يكتب، وفي بعض الأحيان كنا نعتقد أنه لا يعرف حتى أن يتعذب. كان شخصاً لا يفهم وكان يخاف.

هذا الحب الأخرق الذي أحمله له يبقى في نظري سرّاً مغلقاً. لا أدري لماذا كنت أحبّه إلى هذا الحد، حدّ الرغبة في أن أموت مع موته. كنت منفصلة عنه منذ عشر سنوات عندما حدث ذلك ولم أكن أفكّر فيه إلا نادراً. كان يبدو أنني كنت أحبه إلى الأبد ولا شيء جديد كان يمكن أن يحدث لهذا الحب. كنت قد نسيت الموت.

قلّما كنا نتكلّم معاً، ونادراً ما كنا نتكلم عن الأخ البكر، عن تعاستنا، عن تعاسة أُمّنا، عن تعاسة السهل. كنا بالأحرى نتكلم عن الصيد. عن البنادق، عن الميكانيك، عن السيارات. كان يغضب بشأن السيارة المحطمة، وكان يروي لي، ويصف السيارات التي سيمتلكها في ما بعد: كنت أعرف جميع أنواع بنادق الصيد وجميع أنواع السيارات. كذلك كنا نتكلم طبعاً عن احتمال وقوعنا فريسة النمور إن لم نتوخّ الحذر أو عن احتمال أن نغرق في النهر إذا ما تابعنا السباحة في التيارات. كان أكبر مني بسنتين.

هدأت الريح وبان تحت الأشجار النور الخارق الذي يعقب المطر. وثمة عصافير تزقزق بكل قواها، معتوهة. تسنّ مناقيدها في الهواء البارد، وتجعلها ترنّ إلى أقصى مدى بحيث توشك أن تصمّ الآذان.

كانت سفن النقل تصعد مجدداً عالية نهر سايغون، وقد أطفئت محرّكاتها، تستحبها مراكب الجرّ حتى الانشاءات المرفئية التي كانت قائمة عند انعطافات الميكونغ على مستوى سايغون. هذا الانعطاف، هذه الذراع من أذرعة الميكونغ تُسمى النهر، نهر سايغون. كانت مدّة التوقف ثمانية أيام. وحالما تصبح الزوارق على الرصيف تكون الباخرة فرنسا هناك. كان يمكن الذهاب لتناول طعام العشاء على متن فرنسا، وللرقص هناك، وكان ذلك مكلفاً جداً بالنسبة إلى أمي فضلاً عن أنه لا يستحق العناء في

نظرها، لكن معه، مع عاشق شولن، كان يمكننا الذهاب إلى الباخرة. لم يكن يذهب إليها لأنه ربما كان يخشى أن يُرى مع الصغيرة البيضاء، الصغيرة جداً، لم يكن يصرّح بذلك لكنها كانت تعرفه. في تلك الحقبة، وهي ليست بعيدة جداً، حوالي خمسين سنة، كانت البواخر هي الوسيلة الوحيدة للسفر إلى أي مكان في العالم. وكانت أجزاء كبيرة من القارّات لا تزال من دون طرقات، ومن دون سكك حديد. على امتداد مئات، بل آلاف الكيلومترات المربّعة لم يكن هناك سوى الدروب العائدة إلى ما قبل التاريخ. كانت سفن النقل الجميلة لشركة السفريات البحرية[1]، وكان فرسان الخط البواخر المسمّاة بورثوس، ودارتانيان، وأرامينس[2]، التي كانت تصل الهند الصينية بفرنسا.

كانت هذه الرحلة تستغرق أربعة وعشرين يوماً. وكانت بواخر الخط كناية عن مدن فيها شوارع، وبارات، ومقاهٍ، ومكتبات عامة، وصالونات، ولقاءات، وعشاق، وزيجات، وميتات. هناك كانت تتشكل مجتمعات وليدة الصدفة، وكانت محتومة، كما نعلم، ولا تُنسى، ولذلك كانت مكاناً صالحاً للعيش، حتى أنها كانت في بعض الأحيان مجتمعات ترفيهية لا يمكن نسيانها. هنالك كانت رحلات النساء الوحيدة. بالنسبة إلى

---

(١) Messageries Maritimes. في الأصل (المترجم).

(٢) Porthos- D'Artagnan- Armis، أبطال رواية «الفرسان الثلاثة» (١٨٤٤) للروائي الفرنسي ألكسندر دوما (المترجم).

كثيرات منهن، وإلى بعض الرجال أحياناً، كانت الرحلات إلى المستعمرة المغامرة الحقيقية في المشروع، وبالنسبة إلى الأم كانت الرحلات دائماً، مع طفولتنا الصغيرة، ما كانت تسميه «الأفضل في حياتها».

الإقلاع. كان الإقلاع هو نفسه على الدوام. كان أول الإقلاعات في البحر. كان الانفصال عن البرّ مقترناً على الدوام بالألم وباليأس نفسه، غير أن ذلك لم يمنع أبداً الناس عن الذهاب، اليهود، رجال الفكر ومحبي السفر في البحر لمرة واحدة، وهذا لم يكن يمنع أيضاً النساء من السماح لهم بالسفر، هنّ اللواتي كنّ لا يسافرن أبداً، هن اللواتي كنّ يبقين ليحرسن مسقط الرأس، العِرقَ، الممتلكاتِ، مُبرّر العودة. على مدى أجيال كانت السفن قد جعلت الرحلات أبطأ، وأكثر مأسوية أيضاً مما هي عليه في أيامنا هذه. كانت مُدّة الرحلة تغطي طول المسافة في شكل طبيعي. كان الناس معتادين على هذه السرعات البشرية البطيئة في البرّ وفي البحر، كانوا معتادين على هذه التأخّرات، على انتظارات الريح هذه، على انفراجات الطقس، على غرق السفن، على الشمس، على الموت. كانت السفن التي عرفتها البيضاء الصغيرة آنذاك من آخر الناقلات في العالم. ففي شبابها كانت قد أُنشئت في الواقع أولى خطوط الطيران التي كان من شأنها أن تحرم البشرية تدريجياً من السفر عبر البحار.

كنا لا نزال نذهب كل يوم إلى شقة شولن. وكان يفعل

كالمعتاد، خلال وقت طويل كان يفعل كالمعتاد، وكان يحمّمني بماء الجرار ويحملني إلى السرير. كان يقترب مني ويتمدّد أيضاً غير أنه كان قد أصبح خائر القوى، أصبح من دون أية قوة. عندما حُدّد موعد السفر، وإن كان لا يزال بعيداً، أصبح عاجزاً عن فعل أي شيء مع جسدي. كان ذلك قد حصل بغتة، من دون علمه. لم يعد جسده يرغب في هذه التي سترحل، ستخونه. كان يقول: ما عدت قادراً على أخذك، كنت أظن أنني ما زلت قادراً، لكنني ما عدت قادراً. كان يقول إنه مات. كانت شفتاه تفترّان عن ابتسامة اعتذار لطيفة، كان يقول إن هذا قد لا يعود أبداً. كنت أسأله إن كان قد أراد ذلك. فكان يقول وهو يكاد يبتسم: لا أدري، في هذه اللحظة ربما نعم. كانت عذوبته لا تزال تامة في الألم. لم يكن يتحدّث عن ذلك الألم، ولم يقل عنه كلمة. أحياناً كان وجهه يرتجف، وكان يغمض عينيه ويطبق أسنانه. لكنه كان يسكت دائماً عن الصور التي كان يراها وراء عينيه المغمضتين. كان يمكن أن يقال إنه كان يحب هذا الألم، كان يحبه كما كان يحبني، حباً شديداً، حتى الموت ربما، ولعلّه بات يفضله عليّ الآن، أحياناً كان يقول إنه كان يريد أن يداعبني لأنه كان يعلم أن لدي رغبة قوية في ذلك وأنه كان يريد أن ينظر إلي عندما تحدث النشوة. كان يفعل ذلك، كان ينظر إليّ في الوقت نفسه وكان يناديني كما ينادي طفلته. كنا قد قرّرنا ألاّ نتقابل بعد لكن ذلك لم يكن ممكناً، لم يكن ذلك ممكناً. كل

مساء كنت أجده أمام المدرسة في سيارته السوداء، ورأسه مائلٌ من الخجل.

عندما اقتربت ساعة الإقلاع، أطلقت الباخرة ثلاث صفّارات، طويلة جداً، ذات قوة رهيبة، سُمعت في أرجاء المدينة وأصبحت السماء من جهة المرفأ سوداء. كانت زوارق الجرّ تقترب عندئذٍ من الباخرة وتجرّها نحو منتصف النهر. وعندما يتم ذلك كانت زوارق الجرّ تسحب حبالها وتعود نحو المرفأ. عندئذٍ تقول الباخرة وداعاً مرّة أخرى، وتطلق مجدداً خواراتها الرهيبة والحزينة حزناً غامضاً يُبكي الناس، ليس المسافرين منهم وأولئك الذين يفارقونهم فقط بل يبكي أيضاً أولئك الذين جاؤوا ليشاهدوا، وأولئك الذين كانوا هناك من دون سبب معيّن، وكذلك مَن لم يكن لديهم أحد يفكرون فيه، بعد ذلك كانت الباخرة تنطلق في النهر بقواها الذاتية وببطء شديد. ولوقت طويل يظل الناس يرون هيكلها المرتفع يمضي نحو البحر. وكان كثيرون منهم يبقون هناك ينظرون إليها، ويرسلون إشارات الوداع المتباطئة شيئاً فشيئاً، والمثبّطة شيئاً فشيئاً، بوشاحاتهم، ومناديلهم. ومن ثم، في النهاية، كانت الأرض تحتوي هيكل الباخرة في انحناءاتها، وحين يكون الطقس صافياً كانت تُرى وهي تضمحلّ ببطء.

هي أيضاً عندما أطلقت الباخرة صفّارة وداعها الأولى، وعندما رُفِعَ جسر الصعود إلى الباخرة وبدأت زوارق الجَرّ

سحبها، وإبعادها عن اليابسة، شرعت في البكاء. كانت تبكي من دون أن تظهر دموعها، لأنه كان صينياً ولا ينبغي البكاء على هذا النوع من العشاق. ومن دون أن تظهر لأُمّها ولأخيها الصغير أنها كانت حزينة، من دون أن تظهر شيئاً كما جرت العادة في ما بينهم. كانت سيارته الكبيرة هناك، طويلة وسوداء، ومعها، في المقعد الأمامي، السائق في بذلة بيضاء. كانت السيارة مركونة في مكان بعيد قليلاً عن موقف سيارات شركة السفريات البحرية، كانت معزولة. وكانت قد عرفتها من تلك العلامات. كان هو في المقعد الخلفي، ذلك الشكل الذي يكاد لا يُرى، والذي لا يقوم بأية حركة، كان مصعوقاً، كانت متكئة على الدرابزين كما فعلت للمرة الأولى على المعدّية. كانت تعلم أنه ينظر إليها. كانت تنظر إليه هي أيضاً، لم تعد تراه لكنها ما زالت تنظر نحو شكل السيارة السوداء. ومن ثم، في النهاية، ما عادت تراه. كان المرفأ قد انمحى، ثم انمحت الأرض.

كان هناك بحر الصين، البحر الأحمر، المحيط الهندي، قناة السويس. في الصباح كنا نستيقظ وكان الأمر قد تم، كنا نعلم ذلك من غياب الارتجاجات، كنا نتقدّم في الرمال. لكن قبل كل شيء كان هذا المحيط. كان هو الأبعد، والأوسع، وكان يلامس القطب الجنوبي، وكان أطول المحطات، بين سيلان والصومال. في بعض الأحيان كان هادئاً جداً، وكان الطقس صافياً، لطيفاً جداً، عندما كنا نجتازه، كما لو كنا في رحلة أخرى غير هذه عبر

البحر. عندئذٍ كانت الباخرة كلها تنفتح، الصالات، والممرات، والنوافذ، وكان المسافرون يهربون من غرف نومهم الحارَّة جداً وكانوا ينامون على الجسر.

في أثناء رحلة ما، عند عبور هذا المحيط، في وقت متأخر من الليل، كان شخص ما يموت. لم تعد تعلم جيداً ما إذا كان ذلك قد حدث في هذه الرحلة أم في رحلة أخرى. كان أناس يلعبون الورق في بار مسافري الدرجة الأولى، وكان من بين هؤلاء اللاعبين رجل شاب، وفي لحظة معيّنة كان هذا الشاب قد وضع أوراقه، من دون أن ينبس بكلمة، وخرج من البار، واجتاز الجسر عدواً وألقى بنفسه في الماء. وخلال الوقت الذي استغرقه وقوف الباخرة التي كانت تجري بأقصى لسرعتها كان الجسد قد ضاع.

كلا، بينما هي تكتب لا ترى الباخرة بل ترى مكاناً آخر، المكان الذي سمعت فيه هذه الحكاية. كان ذلك المكان هو سادِك، وكان الأمر يتعلّق بابن مدير سادِك. كانت تعرفه، كان هو أيضاً في مدرسة سايغون، تذكر أنه كان طويل القامة، لطيف الوجه، أسمر، وكان يضع نظارة صدفية. لم يجدوا شيئاً في غرفة نومه في الباخرة، ولا أي رسالة. عمر بقي في الذاكرة، مرعباً، العمر نفسه، سبعة عشر عاماً، كانت الباخرة قد انطلقت مجدداً في الفجر. كان هذا الحادث هو الأكثر إثارة للرعب. عند شروق الشمس كان البحر خالياً، وصدر قرار التوقف عن البحث. وكان الانفصال.

ومرّة أخرى، كان ذلك قد حصل خلال هذه الرحلة نفسها، أثناء عبور هذا المحيط نفسه، ومع حلول الليل، حدث في صالون الجسر الرئيسي الكبير انفجار موسيقى رقصة فالس لشوبان كانت تعرفها بطريقة بشرية وحميمة لأنها كانت قد حاولت أن تتعلّمها طيلة أشهر ولم تتوصل أبداً إلى أدائها أداء صحيحاً، الأمر الذي حمل أمها في ما بعد على القبول بهجرها البيانو. تلك الليلة، الضائعة بين الليالي والليالي، وهي من ذلك على يقين، كانت الصبيّة قد أمضتها بالضبط على هذه الباخرة وكانت هناك عندما حدث ذلك الشيء بالذات، هذا الانفجار لموسيقى شوبان تحت السماء المتألقة بالأنوار. لم تكن هناك نسمة هواء وكانت الموسيقي قد انتشرت في جميع أنحاء الباخرة السوداء، وكأنها إيعاز سماوي لم نكن نعرف إلامَ يرمي، كأمر إلهي كنا نجهل مغزاه. وكانت الصبيَّة قد انتصبت كأنما تهمّ بأن تقتل نفسها هي أيضاً، أن ترمي بنفسها في البحر بدورها، ومن ثم شرعت في البكاء لأنها كانت قد فكّرت في رحيل شولن هذا ولم تكن واثقة فجأة من أنها لم تحبه حُباً لم تره لأنه كان قد ضاع في التاريخ كما يضيع الماء في الرمل وأنها كانت قد عثرت عليه الآن فقط في لحظة الموسيقي هذه المرميّة نحو البحر.

مثل خلود الأخ الصغير في ما بعد من خلال الموت.

كان الناس نياماً من حولها، كانت الموسيقى غطاءهم، لكن لم تكن هي التي توقظهم، وكانوا هادئين. كانت الصبيّة تفكّر في

أنها رأت أهدأ ليلة عرفها المحيط الهندي، وتعتقد أنها خلال هذه الليلة أيضاً رأت وصول أخيها الصغير مع زوجته إلى الجسر. كان متئكاً على الدربزين، وكانت قد احتضنته، وكانا قد تعانقا. كانت الصبيّة مختبئة لكي ترى على نحو أفضل. كانت قد تعرّفت إلى المرأة. لقد باتت هي وأخوها الصغير لا يفترقان أبداً. كانت امرأة متزوجة، وكان الأمر يتعلّق بزوجين ميتين. في آخر أيام الرحلة كان الأخ الصغير وهذه المرأة يظلان طوال النهار في غرفة النوم، وكانا لا يخرجان إلا في السماء. في تلك الأيام نفسها كان الأخ الصغير ينظر إلى أمه وإلى أخته من دون أن يتعرّف إليهما كما قد يقال. كانت الأم قد أصبحت نفورة، صَموتة، غيورة، أما هي، الصغيرة، فكانت تبكي، كانت سعيدة، كما كانت تظن، وفي الوقت نفسه كانت خائفة مما قد يحدث في ما بعد للأخ الصغير، كانت تظن أنه سيتركهما، وسيذهب مع تلك المرأة، لكن كلا، لقد انضم إليهما لدى وصولهما إلى فرنسا.

لا تدري كم مضى من الوقت من بعد رحيل الصبية البيضاء إلى أن نفّذ أمر أبيه، عندما أتمّ هذا الزواج الذي كان قد أمره بعقده على الصبية التي حدّدتها العائلة منذ عشر سنوات، والمغطاة بالذهب هي أيضاً، وبالماس، وبالجاد، وهي صينية أيضاً متحدّرة من الشمال، من مدينة فور شوين، جاءت برفقة العائلة.

بقي مدة طويلة عاجزاً عن أن يكون معها، عاجزاً عن إعطائها وريث الثروات. كان لا بد لذكرى البيضاء الصغيرة من أن تكون هناك، وأن يكون الجسد، هناك، نائماً على السرير بالعرض. وكان لا بد أن تظل لوقت طويل سلطانة رغبته، والمرجعية الشخصية لانفعاله، ولحنانه الغامر، وللعمق الجسدي الشهواني المُعتم والرهيب. ثم جاء اليوم الذي بات فيه هذا الأمر ممكناً. اليوم الذي كان ينبغي فيه للرغبة في البيضاء الصغيرة أن تُزعزَع لدرجة أن كان بوسعه أن يرى إلى صورتها الكاملة وكأنها في حُمّى مرتفعة وقوية وأن يدخل في المرأة الأخرى بهذه الرغبة فيها، هي الطفلة البيضاء. ولربما كان عليه أن يجد نفسه في الكذب، في داخل تلك المرأة، وأن يفعل، من خلال الكذب، ما كانت تنتظره منه العائلتان، والسماء، والأسلاف الشماليون، أي إنجاب وريث الاسم.

ربما كانت تعلم بوجود الصبيّة البيضاء. كانت لديها خادمات مولودات في سادِك كنّ يعرفن الحكاية وكان لا بد أن يتكلّمن. لم يكن عليها أن تنسى عناءها. ربّما كانتا في العمر نفسه كلتاهما، ستة عشر عاماً. في تلك الليلة هل رأت زوجها يبكي؟ وعندما رأته هل واسته؟ صبية في السادسة عشرة، خطيبة صينية، في عقد الثلاثينيات، هل كان بإمكانها، من دون إخلال باللياقة، أن تواسي بهذا النوع من عناء الخيانة الزوجية التي كانت هي التي تدفع ثمنها؟ مَن يدري؟ ربما كانت تخدع نفسها،

ولعلّها بكت معه، من دون أن تنطق بكلمة، بقية الليلة. ثم، من بعد ذلك، قد يأتي الحب، بعد الدموع.

هي، الصبية البيضاء، لم تكن تعلم أبداً شيئاً عن تلك الأحداث.

بعد سنوات على انتهاء الحرب، بعد الزيجات، بعد الأولاد، بعد الطلاقات، كان قد جاء إلى باريس مع زوجته. وكان قد اتصل بها هاتفياً. هذا أنا، كانت قد عرفته من صوته. قال: كنت أريد أن أسمع صوتك فقط. قالت: هذه أنا، صباح الخير. كان خجولاً، وكان خائفاً كما كان في الماضي. كان صوته يرتجف فجأة. ومع الارتجافات، فجأة، استعادت لهجة الصين. كان يعلم أنها كانت قد بدأت تكتب كتباً. كان قد علم ذلك من الأم التي كان قد رآها مجدداً في سايغون. كما كان على علم بشأن الأخ الصغير، وأعرب لها عن حزنه من أجلها. ثم لم يعد يعرف ماذا يقول لها. ثم قال لها ذلك. قال لها إنه ما زال يحبّها كما كان الأمر في السابق، وإنه لن يستطيع أبداً أن يكفّ عن حبها، وإنه سيحبها حتى الموت.

نوفل ـ لو ـ شاتو ـ باريس
شباط ـ أيار ١٩٨٤(١)

---

(١) Neauphle- le- Chateau- Paris.

هذا الكتاب

ذات يوم، في بهوِ مكان عام، وكنت قد تقدّمتُ في السنّ، أقبل نحوي رجل عرَّفني بنفسه وقال لي: «أعرفك منذ زمن بعيد. يقول الجميع إنك كنتِ جميلة وأنتِ شابَّة، وقد أتيتُ لأقول لك إنني أجدك الآنَ أجمل مما كنتِ في شبابك، وليس وجهك وأنت امرأة شابّة بأحبّ إليّ من وجهك الآن، هذا المُكْتَسح».

غالباً ما أفكّر في هذه الصورة التي ما زلتُ أراها وحدي ولم أتكلّم عنها أبداً. إنها لا تزال ماثلةً هنا في الصمت نفسه، إنها مذهلة. وهي التي تعجبني عن ذاتي من بين جميع الصور الأخرى، وهي الوحيدة التي أتعرّف فيها إلى نفسي، والتي تسحرني.





